

# الفصل الأول

## أصول الفكر والعوامل المؤثرة على الشخصية الفنية

### الفكر

#### التباين بين التفكير والشعور:-

الشعور يتميز بنوع من البساطة , على نقيض الفكر الذى قد يصح القول بأنه يتميز بما يمكن أن يسمى بالقطبية الثنائية . إذ أننا كلما فكرنا أصبحنا إلى حد ما على وعى بوجود اختلاف بين التفكير الجيد والتفكير الردىء.

الشعور يتميز بنوع خاص من الخصوصية , بعكس ما يمكن أن يسمى بعلانية الفكر . فقد يشعر مائة من الناس بالبرد فى الطريق , الا أن كل شعور يشعر به أى شخص يعد خاصا به .

الأفكار قد تؤيد بعضها البعض أو قد يناقض بعضها البعض , أما الشعور فليس كذلك . أن ما نشعر به مقيد فى وجوده بالمكان والزمان الذى تم فيه الشعور , بينما ما نفكر فيه هو دائما شئ أبدي , فليست ثمة ضرورة إلى تقدير أبدية كل موضوعات الفكر كما هى كذلك . فاننا نعنى بشئء يدوم , حتى و ان لم يبق الى الأبد , أى بشئء يتكرر بحق باعتباره عاملا فى التجربة حتى اذا لم يتكرر إلى ما لا نهاية .

قارن سيل الشعور بسيل النهر . لكان الفكر شبيها بالأرض و الصخور التى تحدد مجراه التى تتميز بصلابتها واستمرارها نسبيا . بل يرجع هذا الاختلاف إلى أن الصلة بين فعل التفكير وما نفكر فيه , مختلفة من حيث النوع عن الصلة بين فعل الشعور وما نشعر به .

أن كل محسوس يظهر له يكون محملا بشحنة انفعالية خاصة به , و أنه نظرا إلى ارتباط الاحساس و الانفعالات على هذا الوجه , فانهما يعدان عنصرين وثيقى الصلة فى كل تجربة من تجارب الشعور .

فيلوح أن طبيعتنا الحسية الانفعالية – باعتبارنا كائنات ذات شعور – مستقلة عن طبيعتنا الفكرية بوصفنا كائنات عاقلة . وهذه الطبيعة الحسية الانفعالية تكون مستوى من التجربة أدنى من مستوى الفكر . طابع الأساس الذى يقام فوقه الجانب العقلى من طبيعتنا , هو أساس قد وضع ووطد فى كل من تاريخ الكائنات الحية , بوجه عام , وفى تاريخ كل فرد قبل أن يقام فوقه بناء الفكر العلوى . وهو يبسر لهذا البناء العلوى أداء مهامه على خير وجه عندما تتوافر له سلامة الأحوال .

#### التفكير:-

يزود الشعور الفكر بأكثر من مجرد الأساس الذى يرتكن اليه . فهو قد يكون موضوعه الوحيد الذى يعنى به فى حالة تركزه عليه . والفكر فى صورته الأولية يبدو وكأنه لا يعنى بغير الشعور بحيث يستطيع القول بأن الشعور هو موضوعه الوحيد الكلى . وهذا لايعنى عدم وجود صورة ثانوية أخرى للفكر .

تجربتنا لعالم المكان والزمان , " عالم الطبيعة " هى تجربة حسية من جانب (وبعبارة أدق حسية انفعالية) وفكرية من جانب آخر .

الصورة الثانوية للفكر التى لانفكر فيها فى مشاعرنا أو نكتشف فيها صلوات بين شعور وآخر , بل نفكر فيها فى أفكارنا , أى أننا نعنى فيها بالأسس التى يبحث وفقا لها فعل الفكر فى صورته الأولية الصلوات بين المشاعر , أو بعبارة أخرى الأسس التى تقوم وفقا لها الصلوات الباطنية بين مانفكر فيه فى مثل هذه المناسبات .<sup>(١)</sup>

#### الخيال و الوعى:-

الخيال أكثر حرية من الأحساس , وان كان الاحساس ليس مفتقرا كلية الى الحرية , لأنه فعل تلقائى للكائن الحى الواعى .

فالخيال اذن اذا نظر اليه فعلا حرا أو مظهرا من مظاهر الحرية , يبدو أنه يشغل مكانا متوسطا بين الأفعال الأقل حرية الخاصة بالشعور المحض , و بين الأفعال الأكثر حرية التى جرت العادة على تسميتها بالفكر .

الخيال يكون نوعا من الوصل بين الاحساس والفهم , كما اتفق أرسطو وكانط على القول بذلك .

فعل التفكير – يفترض سلفا على الدوام تحقيق فعل الانتباه . لابعنى أنه لن يحدث الا بعده , بل بمعنى أنه يعتمد عليه , وكأنه أساس له . فالانتباه يسير جنبا الى جنب مع الفهم , ويتعدل بفعله , بطريقة تناسب حاجات الجمع بينهما .

(١) تأليف روبين جورج كولنجوود، مبادئ الفن ، ترجمة د . أحمد حمدي محمود ، مراجعة على أدهم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، ص ١٦٣ ، ١٧٢

فعندما يضاف إلى التجربة النفسية المحضنة للشعور (أى التجربة الحسية الأنفعالية الخاصة) , فعل الانتباه , فان كتلة الشعور التى تظهر أمام العقل تنقسم الى قسمين : قسم نتبه له ويدعى بالجانب "الواعى" (وبتعبير أصح ليس هذا الجانب هو الواعى , اننا الذين نعى به) , وما بقى هو الجانب "اللا واعى" . هو المقابل السلبي لما يتركز عليه الانتباه , أو ظلالة .

(الوعى . فهى تدل على معية الشئيين : الاحساس و المحسوس . فكلاهما حاضر أمام العقل الواعى .)

والوعى باعتباره سيداً فى داره يتحكم فى الشعور . فالكائن الواعى اذن ليس حراً فى تقرير أى مشاعر ستكون له , الا أنه حر فى تقرير أى مشاعر سيضعها فى مركز وعيه . فان حرية الوعى ليست حرية اختيار بين بدليين . ان هذا نوع من الحرية يجى فيما بعد ولا يحدث الا عند ما تبلغ التجربة مرتبة الفهم .

فالانتباه إلى المشاعر يعنى الامساك بها أمام العقل , وتحريرها من سيل الاحساسات البحتة , والاحتفاظ بها أطول مدة قد تكون ضرورية , حتى نستطيع أن نلاحظها .

فالنفس الواعية لا تظل خاضعة لمشاعرها , اذ هى تستطيع الانتقاء , وعزل أى عنصر متضمن فى هذه المشاعر و تركيز الانتباه عليه . وفضلا عن ذلك , وعندما يتحقق ذلك , يتخذ الشعور الذى أنتبه له على هذا الوجه بالنسبة إلى التجربة النفس جملة , طابع الفكرة لا طابع التأثير . فهو لا يتحكم , بل يطيع . وهو لا يقرر رد الفعل الخاص بالنفس , بل يمثل هيمنة النفس على ما يتبعها. (١)

### و التأثير بوصفه شعورا بحتا . فنحن فى الواقع قد فرقنا بين ثلاثة أطوار يمر بها الشعور:-

- ١- الشعور عندما يكون شعورا بحتا , أى أدنى من مرتبة الوعى .
- ٢- الشعور الذى عندما نصبح على وعى به .
- ٣- الشعور الذى أصبحنا على وعى به , و قررنا صلته بالأشياء الأخرى علاوة على ذلك .

يحول فعل الوعى - التأثير إلى فكرة , أو يحول بمعنى آخر الاحساس الخام الى خيال . فالخيال اذن هو الشكل الجديد الذى يبدي فيه الشعور بعد تحوله بفعل الوعى . الخيال مرتبة متميزة من التجربة تقع فى موقف وسط بين الاحساس والفهم .

فالوعى ليس شيئاً آخر غير الفكر : أنه الفكر ذاته , الا أنه مرتبة من الفكر لم تبلغ بعد مرتبة الفهم . (ملحوظة : الفكر السابق لم يكن بأوسع معانيه , أى الذى يتضمن الوعى , بل كان الفكر أضيق هو الفكر النموذجى أو التفهم .)

ومهمة الفهم هى ادراك الصلات أو انشاؤها . أحدهما أولى و الآخر ثانوى . فالفهم فى مهمته الأولى يدرك الصلات بين الأطراف التى أسميناها بالمشاعر . والتأثيرات انها هذه المشاعر بعد أن تحولت بوساطة الوعى و أصبحت أفكارا . و الفهم فى مهمته الثانية يدرك الصلات بين أفعال التفهم فى أول مراتبه , أو بين مانفكر فيه فى مثل هذه الأفعال .

فاذا افترضنا أننى قمت أثناء انشغالى بأية فكرة على هذا الوجه باستدعاء فكرة أخرى , فان الفكرة الجديدة لن تظهر إلى جانب الفكرة القديمة باعتبارهما تجربتين متميزتين أستطيع كشف أية صلوات بينهما . فالفكرتان تمتزجان فى فكرة واحدة , فتظهر الفكرة الجديدة نفسها تلوينا خاصا للفكرة القديمة , أو تحويرا لها . وهكذا يتشابه الخيال مع المشاعر فى أن موضوعه لا يتألف من كثرة من الأطراف بينهما صلوات , بل هو وحدة مفردة لا تتجزأ , أو مجرد هنا و الآن . فالتصورات الخاصة بالماضى و المستقبل و الممكن و الفرض لا معنى لها عند الخيال , كما هو الحال عند الشعور ذاته . انها تصورات لا تظهر الا فى حالة تقدم لاحق للفكر . (٢)

"افساد الوعى" . اذ أن الوعى قد سمح لنفسه بالارتشاء أو بالتعرض للفساد أثناء أداء مهمته . فان النفس الواعية تنكر مسئوليتها عنها , و بذلك تحاول التهرب من الخضوع لها , و لاتبالي باخضاعها لها . و هذا هو الوعى الفاسد الذى يعد مصدر ما أسماه السيكلوجيون بالكبت . (٣)

### اللغة (الفن) و الفكر:-

الفن تعبير خيالى عن الأنفعال . فان الانفعالات التى سيعبر عنها لن تكون مجرد انفعالات و عى فى أدنى مراتبه الحسية . أنها ستتضمن انفعالات الفكر .

(١) مرجع سابق , ص ٢٠٢ , ٢١٤

(٢) مرجع سابق , ص ٢٢٧

(٣) مرجع سابق , ص ٢١٧ , ٢٢١ , ٢٢٨

والاختلاف بين الخيال والفهم بوجه عام , هو أن الخيال يعرض على نفسه موضوعا يجريه على أساس أنه شئ واحد لا يتجزأ بينما الفهم يتجاوز هذا الشئ الواحد و يعرض لنفسه كثرة من الأشياء, بينهما صلات من أنواع محددة.(٣)

وفي مستوى التجربة الخيالية , يترجم الانفعال الفطري في المستوى النفسى إلى انفعال في مستوى الفكرة , أو ما يدعى بالانفعال الاستاطيقى , ويتم الشعور بهذه الشحنة الانفعالية تلويها جديدا , يتلون به هذا الانفعال عند التعبير عنه . و بالمثل يتحول الفعل النفسى الطبيعى الذى كان الانفعال المعطى هو شحنته إلى فعل موجه للكائن , خاضع لسيطرة الوعى الذى يوجهه . وهذا الفعل هو اللغة أو الفن . فهو تجربة خيالية تعد متمايزة عن التجربة النفسية الطبيعية البحتة.(٤)

لو أمكن تحديد معنى الخيال تحديدا وافيا , على أنه صورة للتجربة تعمل على تقديم الحقيقى و غير الحقيقى فى خليط أو مزاج غير محدد المعالم , يقوم الفهم بعد ذلك بترسيب الحقيقة منه أو بلورتها , لغدت للفن بوصفه خيالا مهمة حقة وهامة فى الحياة . ووفقا لهذه النظرية , تكون مهمة الفن هى إنشاء عوالم ممكنة سيرى الفكر فيما بعد بعضها حقيقيا , أو سيحولها الفعل الى حقيقة .

تميز الفن الحق بمهمتين . المهمة الأولى خيالية , و المهمة الثانية هى التعبير . وأى خيال يقنع بإنشاء العوالم الممكنة لن يمكن أن يكون اطلاقا تعبيراً عن الانفعال فى نفس الوقت , لأن قيام الخيال الانشائى بالتعبير عن الأنفعال أمر ضرورى , وليس مجرد أمر ممكن فحسب . وضرورته قد جاءت من هذا الانفعال , اذ هو وحده الذى سيقوم بالتعبير عنه .

والفن لا يمكن أن يقف موقف عدم مبالاه بالحقيقة . فهو أساسا يرمى إلى بلوغ الحقيقة . الا أن الحقيقة التى يبحث عنها ليست حقيقة خاصة بصلات بين الأشياء , بل هى حقيقة ادراك ماهية الواقعة المفردة . والحقائق التى يكتشفها الفن هى تلك الأشياء الفردية القائمة بذاتها التى تصبح من وجهة نظر الفهم " الأطراف " التى يضطلع الفهم بتقرير الروابط التى تربط بينها , أو ادراكها .(١)

### الفكر و الفنان :-

اذا تأملنا التجربة الاستاطيقية وفقا لنظرة نميز فيها الفعل النظرى من الفعل العملى , فسندرى أنها تظهر خصائص من كلا النوعين . ففيها تتمثل معرفة الانسان لنفسه ومعرفته بعالمه . ولا تمايز قد حدث بعد فى هذه التجربة بين العارف والمعروف .

والتجربة الاستاطيقية تدل كذلك على قيام الانسان بصنع ذاته وصنع عالمه . فالذات التى كانت فى الاصل نفسا قد أعيد صنعها فى شكل الوعى , والعالم الذى كان محسوسات فطرية قد أعيد صنعها فى شكل اللغة , أو فى صورة محسوسات حولت إلى خيالات وعبئت بانفعالات لها دلالة , ومن ثم تكون الخطوة المتقدمة التى خطتها التجربة من المرحلة النفسية إلى مرحلة الوعى و ما يحدث فيها هو الانجاز الذى يتميز به الفن .

لو أننا فحصنا أى عمل فنى , نختاره كما نشاء , و تأملنا الانفعالات التى يقوم بالتعبير عنها فسندرى أنها تتضمن بعضا من الانفعالات الفكرية (الانفعالات التى لا يمكن أن يشعر بها سوى كائن مفكر ) . ويتم الشعور بها فى الواقع لأن مثل هؤلاء الكائنات يستخدمون عقلم بطرائق معينة . و الشحنات الانفعالية التى تظهر فى هذه الحالة ليست شحنات خاصة بالتجربة النفسية البحتة أو خاصة بالتجربة فى مستوى الوعى البحت , بل هى خاصة بالتجربة الفكرية , أو بالفكر فى أضيق معنى للكلمة .(٢)

العمل الفنى بالمعنى الحق للكلمة ليس "أداة" , أى أنه ليس جسما أو مدركا حسيا يصنعه الفنان , بل هو شئ موجود فى رأس الفنان وحده , أى هو مخلوق من عمل خياله . وهو ليس تجربة خيالية مرئية أو سمعية فحسب , بل تجربة خيالية شاملة . حيث أن كل تجربة خيالية هى تجربة حسية قد رفعت الى المستوى الخيالى بواسطة فعل الوعى , أو أن كل تجربة خيالية عبارة عن تجربة حسية بالإضافة الى الوعى بهذه التجربة . ومن هذا يتضح أن التجربة الاستاطيقية تجربة خيالية . فهى خيالية قلبا وقالباً , اذ أنها لا تتضمن أى مكونات ليست خيالية . و القدرة الوحيدة التى تستطيع احداثها هى قدرة وعى صاحب التجربة .

" لاشئ فى الخيال لم يسبق وجوده فى الأحساس " . اذا أردت أن تنتزع أكبر قدر من التجربة , فعليك أن تضع فيها أكبر قدر من نفسك , و ما يضعه المصور عند تجربته لأى موضوع أكبر بكثير ممن يكتفى بالنظر اليه , هذا بالإضافة إلى ما يضعه عندما يرسم الموضوع , وهو ما تحقق بعد وعى كامل . فما ينتزع الرسام من التجربة اذن هو شئ أكثر نسبيا .

(١) مرجع سابق , ص ٢٥٤ , ٢٥٥

(٢) مرجع سابق , ص ٢٧٦

(٣) مرجع سابق , ص ٢٨٨ , ٢٩١

(٤) مرجع سابق , ص ٢٩٤ , ٢٩٦

وهذه الزيادة تتمثل بالضرورة في الشئ الذى أستطاع تجسيمة فى صورته أو تسجيله. بل يسجل التجربة الأخصب, والبعيدة الاختلاف فى نواح أخرى, الخاصة برويته وبرسمه معا. (١)

الفعل الاستاطيقى فعل من أفعال الكلام. و الكلام لن يكون جديراً بهذه التسمية الا اذا جرى كلام واستماع معا. فكما توجد صلة بين كل فنان و بين الفنانين الآخرين الذين اكتسب منهم فنه, كذلك ثمة صلة بينه و بين نفر من المتذوقين الذين يخاطبهم. فما يجعلهم شعراء أو مصورين أو موسيقيين ليس عملية نمو تحدث فى باطنهم, بل هو الحياة فى مجتمعات تتكلم هذه اللغات. فهم مثل غيرهم يوجهون كلامهم إلى أولئك الذين يفهمون. (٢)

لاينصب اهتمام الاستاطيقى على وقائع غير محددة بزمان تنتسب إلى عالم ميثافيزيقى علوى, بل يتركز هذا الاهتمام على وقائع تتبع مكانه و زمانه. (٣)

(١) مرجع سابق, ص ٣٠٦, ٣٠٨

(٢) مرجع سابق, ص ٣١٧

(٣) مرجع سابق, ص ٣٢٥

## - حركة التنوير The Enlightenment :-

خصائص التنوير هي التشكيكية اتجاه عقائد الكنيسة، والنزعة الفردية، والإيمان بالعلم و المنهج التجريبي، واستخدام العقل، والتعليم الذى أمكن أن يكون عاملا محفزاً للتغيير الاجتماعى والمطالبة إلى التمثيل السياسى . فقد كان ذلك نتيجة رئيسية اجتماعية وسياسية للثورة الفرنسية.

كانت جوهر فترة حركة التنوير النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، المفكرون الذين ارتبطوا بحركة التنوير هم دى هولباخ d'Holbach (1723-1789) الموسوعى من فرنسا ، دافيد هيوم David Hume (1711-1776) من اسكتلندا ، وكانط Kant من ألمانيا ، ولفهم عصر التنوير علينا أن ننظر إلى ما سبقه.

بدأت معركة الأفكار التى وصلت إلى ذروتها فى حركة التنوير فى القرن السابع عشر، فرانسيس بيكون Francis Bacon (1561-1626) الذى دعا إلى استخدام المنهج العلمى و رينه ديكارت René Descartes (1596-1650) الذى اقترح العقلانية الحاسمة rationalism، ويمكن فهم حركة التنوير باعتبارها تنويجا للابتعاد عن السلطة و العقائدية المغترسة للعصور الوسطى وإيقاظ الحداثة.

فلسفة العصور الوسطى جمعت بين المعتقدات المسيحية وأفلاطون Plato وأفكار أرسطو Aristotle، فى عالم فلاسفة العصور الوسطى احترموا أسلافهم وقبلوا أساليبهم، فإذا كان هناك اكتشاف جديد حول الطبيعة يتناقض مع إحدى مبادئ أرسطو على سبيل المثال من المحتمل أن يكون الاكتشاف مخطئاً.

مفكرو حركة التنوير لم يكونوا على قبول باللجوء إلى سلطة أرسطو ، ويمكن أن نرى أن استخدام الأساليب التجريبية للعلم يحرز تقدما و يزيد من فهمنا للطبيعة، والتى لم يكن دون رفض بعض افتراضات أرسطو ، ولم يكن أرسطو الوحيد الذى جرى التشكك به، وذلك باستخدام عقل ومنطق الفلاسفة المنتقدين لأفكار السياسية والدينية ، فما هو الجواب العقلانى لتبرير الملكية أو وجوب اختيار نوع من دين على آخر؟

## - العقلانية Rationalism :-

العقلانى هو فيلسوف يعتقد أنه يمكن الحصول على المعرفة عن طريق العقل وحده ، دون مرجع الى العالم الخارجى .<sup>(1)</sup>

العقلانية لها تاريخ طويل فى الفلسفة ، أفلاطون Plato (427 – 347 ق . م) كان عقلانيا، وكان رينه ديكارت René Descartes (1596 - 1650)، "أب الفلسفة الحديثة" أول عقلانى حديث. كان يرى أن الفلسفة يجب أن تبتعد عن المعتقدات الدينية و توجد لنفسها أسسا ثابتة، كان يبحث عن اليقين، و استخدام أسلوب الشك فى محاولة لإيجاد ما لايرقى للشك.

كان يتصور أن حياته كلها يمكن أن تكون هلوسة ناجمة عن "الشيطان الخبيث"، إذا كان هذا هو الحال فما الشئ الذى يمكن أن يتأكد منه؟ أدرك ديكارت أنه لا يستطيع الشك فى أنه يفكر، فالشك هو نوع من التفكير، لذلك من دون أى مرجع إلى العالم الخارجى ديكارت كان واثقا من أنه وجد الحقيقة الأساسية التى لا يمكن أن تكون موضع تساؤل، بالطبع ذات مرة أطلق أنه كان يفكر أنه لم يعد يستطيع الشك فى أنه موجود (شئ يجب أن يقوم به التفكير)، وهذا مكنه من بناء نظام فلسفى يقوم على الفكر وحده .

حالما ديكارت أعاد تقديم التساؤل الحاسم فى الفلسفة ترك المشهد للكفاح لمائة عام الأمر الذى أدى إلى حركة التنوير، كما هناك فلاسفة عقلانيون آخرون شملوا سبينوزا Spinoza، لايبنيز Leibniz، كانط (كانت) Kant، وهيجل Hegel .

## - التجريبية The Empiricism :-

التجريبية هو الاعتقاد بأن كل معرفة تأتى من الخبرة . "العالم التجريبي " هو عالم الحواس، أى العالم الذى يمكن أن نراه، نشعر به، نلمسه، ونستمع إليه ونشمه.

فكر جون لوك John Locke (1632-1704) أن العقل البشرى عند الولادة هو tabula rasa ( blank tablet ) لوح فارغ، حيث التجربة هي التى تكتب المبادئ العامة والتفاصيل لجميع المعارف ، هذا عكس العقلانيين تماما ، فى حين أن العقلانى فى محاولة العثور على معرفة عن طريق الفكر وحده ، التجريبي يستطيع استخدام أساليب العلوم التجريبية.

التركيز على العلم والتجربة هي واحدة من خصائص حركة التنوير . هولباخ d'Holbach (1723-1789) نشر "نظام الطبيعة System de la nature" (1770) الذى أكد فيه أنه لاينبغى تفسير الطبيعة على أفكار المعتقدات التقليدية أو "وحى

revelations " الكنيسة . ولكن من خلال تطبيق المنهج العلمى . الذى لم يكن حتى كانط حيث جمع خيوط التجريبي والعقلانى معا .

### - الموسوعيون The Encyclopedists :-

الموسوعة أوالقاموس المنطقى للعلوم و الفنون و الحرف ( *The Encyclopédie ou Dictionnaire Raisonné* ) نشرت فى سبعة عشر مجلدا من ١٧٥١حتى ١٧٦٥ , وكان هدفه تقديم معلومات فى كل مجال من مجالات المعرفة , وعلى وجه الخصوص لتعزيز تطبيق العلم فى الصناعة والتجارة والفنون , ينظر إليها من البعض كخلاصة لروح عصر النهضة .

دونى ديدرو Denis Diderot (١٧١٣-١٧٨٤) التزم بالاتجاه التجريبي و كتب فى الفلسفة , والدين , و النظريات السياسية و الأدب , وكان شديد الانتقاد لنفوذ الكنيسة على الأفكار .

فولتير Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨) أيضا حرر و ساهم فى الموسوعة Encyclopédie , وكان ضد المسيحية و انتقاديا لرجال الدين والملك و امتيازات النبلاء , وكان مؤثرا للغاية فى صعود الفكر الليبرالى فى أوربا القارية .

جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) كتب فى الموسيقى والاقتصاد السياسى , فى وقت لاحق تشاجر مع ديدرو Diderot وأصبح يعتبر الموسوعة كعمل من الشيطان .

لم يكن روسو وحده , فى عام ١٧٥٢ و ١٧٥٩ أدار اليسوعيون قمع المنشور , مع ذلك ديدرو ظل ثابتا بقرب عام ١٧٧٢ نشر المزيد من أحد عشر مجلدا من الصفائح , فطموح ديدرو لـ "تغيير العادات المقبولة من الفكر" كان ناجحا إلى حد كبير .

### - التمييز التحليلي / التركيبي The analytic/synthetic distinction :-

بعض البيانات نحكم عليها بأنها صحيحة أو خاطئة بناءً على علاقتها بالحقائق فى العالم , على سبيل المثال إنك الآن تقرأ هذا الكتاب , كونك تقرأ هذا الكتاب يسمى ذلك عندالفلاسفة بالحقيقة التركيبية synthetic truth , وهناك بيانات أخرى نحكم عليها بأنها صحيحة نظرا لمعاني الكلمات المعنية , يمكننا أن نعرف أن الجملة " جميع العزاب غير متزوجين " .فهى صحيحة دون الحاجة إلى القيام بتحقيق للعزاب , وذلك لأن الجملة صحيحة من خلال التعريف . وهى الحقيقة التحليلية analytic truth .

الحقائق التركيبية هى "حقائق الواقع" , والحقائق التحليلية هى "حقائق العقل" , نستخدم الأساليب التجريبية للتحقق من البيانات التركيبية والأساليب العقلانية للتحقق من البيانات التحليلية .

كان كانط أول من استخدم مصطلح التركيبية والتحليلية , وأشار إلى أن جميع الحقائق التحليلية ضرورية , وهذا يعنى أنها لايمكن أن تكون خلاف ذلك , إذا كنت توافق على أن تعريف العازب هو رجل غير متزوج , من ثم البيدهى أن كل العزاب غير متزوجين .

البيانات التركيبية ليست ضرورية , الفلاسفة استخدموا كلمة مشروطة contingent لوصف ما هو غير ضرورى , فإنه صحيح ليس بالضرورة أنك تقرأ هذه الصفحة على الأنترنت لأنه من الممكن أن تقرأ النسخة المطبوعة على سبيل المثال .

من المهم التمييز بين التحليلي / التركيبى فى الحجة , فإذا حاولت الجدال بأن هناك شيئا صحيحا عليك أن تكون واضحا حول ما إذا كنت تقوله شيئا عن العالم التجريبي , أو أن توضح معانى الكلمات .

### - منطق logic :-

الفلسفة الجيدة يجب أن تستند إلى حجج وجيهة , وليس الحجج بمعنى المشاجرات , ولكن الحجج المسببة , المنطق يمكن أن يفهم كعلم المنطق السليم ; ما يفصل بين الحجة الجيدة والسيدة , الطريقة المفيدة لفهم الحجج وما يجعلها جيدة أو سيئة هو تقسيمها إلى نوعين : استنتاجية deductive واستنباطية inductive .

فى الحجة الاستنتاجية , يقال بأن النتيجة صحيحة إذا كانت تترتب على فرضية (البيانات مبدئية) . الشكل المعروف الأفضل من الحجة الاستنتاجية هو القياس المنطقى syllogism , وأبسط ما تتكون من فرضيتين ونتيجة :

- الفرضية الأولى بأن جميع الفلاسفة حكماء .
- الفرضية الثانية بأن سقراط فيلسوف .
- النتيجة لذلك , سقراط حكيم .

ولكن إذا كان الافتراض الأول بأن "بعض الفلاسفة حكماء" لم تتمكن من التأكد من أن سقراط حكيم، كما أنه قد لا يكون واحدا من الفلاسفة الحكماء. المنطق الاستنباطي لا يطالب بالأدلة التجريبية، طالما أن الفرضيات صحيحة والحجة صالحة من ثم النتيجة يجب أن تكون صحيحة.

المنطق الاستنباطي يهتم بالتعميم عن العالم التجريبي القائم على الملاحظة الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلم التجريبي (فالتجربة هي نوع معين من الملاحظة)، دعونا نقول أننا مهتمون في شخصية الأشخاص مع وجود علامات فلكية مختلفة، ونحن نلاحظ صاحب برج العذراء مرتبا، فنحن قد نرغب في صنع تعميم بناء على ذلك، وعلى الرغم من ملاحظتنا قد ساندت هذا التعميم إلا أنه لا يمكننا أن نكون متأكدين من أنه قد ينطبق على جميع أصحاب برج العذراء، فإن ذلك فقط ما لاحظناه، وقد يكون هناك برج العذراء في المستقبل، أو في بعض البلاد الأخرى ليس شبيها بذلك.

### **- الحتمية Determinism :-**

فكرة الحتمية هي أن كل الأحداث هي نتائج لأسباب سابقة، فإذا سخنا قضيبا من الحديد فالقضيب يتمدد، فيمكننا القول بأن الحرارة هي سبب التمدد.

وترتبط فكرة الكون المحتم ماديا بالسير إسحاق نيوتن Sir Isaac Newton (1642-1727)، وتسمى هذه في بعض الأحيان منظر كرة البلياردولطبيعة؛ كرة البلياردو تتحرك فقط عندما تمثل عليها قوة أخرى مثل كرة بلياردو أخرى تضربها، لو تمكنا من قياس السرعة الدقيقة وزاوية كرة البلياردو الأولى، يمكن أن نتوقع حركة الثانية.

المشكلة الفلسفية تأتي مع البشر، إذا كنا قد تقبلنا وجهة النظر التجريبية؛ حيث أن البشر هم نظم منظمة للمادة، وإن عقولنا قد تشكلت كنتيجة لخبرات، ومن ثم قد نريد أن نفسر السلوك البشري من حيث السبب والنتيجة.

إذا كنا نعرف ما يكفي عن البيولوجية التي تشكل الفرد، تجاربه في مرحلة الطفولة المبكرة والظروف الاجتماعية والتاريخية التي ولد بها، عندئذ ربما يمكننا التنبؤ بجميع تصرفاته، من هذه وجهة النظر فكرة الإرادة الحرة (القدرة على الاختيار) هي ببساطة نتيجة ل أو الجهل بجميع العوامل السببية. هذه بقدر ما كانت مشكلة بالنسبة ليومنا هذا كانت لمفكرى حركة التنوير، فقد أعتقد أنى في حالة حب مع رفيقة الروح الفريدة، لكن قد يكون جسدي منتجا موادا كيميائية جعلتني أفع في الحب من أجل تكاثر الأنواع.

وإذا لم يكن هناك شيء اسمه الإرادة الحرة من ثم لا يمكننا تطبيق المفاهيم الأخلاقية مثل الخير والشر. فالأخلاق توجد فقط عندما يكون هناك اختيار. بطبيعة الحال، إذا كنا نعتقد أن الطبيعة البشرية هي شيء آخر غير الأسباب السابقة، من ثم يجوز لنا القول بأن الناس لديهم مسؤولية عن أعمالهم.<sup>(1)</sup>

### **كانط Kant :-**

يعتبر إيمانويل كانت Immanuel Kant (1724-1804) واحدا من أهم الفلاسفة على الإطلاق، فهو شخصية رئيسية في عصر التنوير حاول الجمع بين العقلانية والتجريبية في فروع فلسفته، كتب في العلوم الطبيعية، والميتافيزيقيا (ما هي الحقيقة)، والأخلاق والدين.

كان معجبا بالتقدم في العلوم الطبيعية بعد نيوتن وكان يخشى أن الفلسفة في المقابل تكون مشوشة وملينة بالخلاف، وكان مشروعه هو محاولة ليجاد أن الفلسفة يمكن أن تقول أي شيء على الإطلاق.

ورأيه بأن دور الفلسفة هو كشف كيفية فهم البشر أو تصنيف العالم، وواحدة من استنتاجاته هي أن نفهم العالم من خلال فئات مثل المكان والزمان، ونفرض هذه الفئات على الأشياء، وأنها خاصة فهمنا بدلا من خصائص الأشياء.

في الفلسفة الأخلاقية بدأ من فكرة أن جميع البشر عقلانيون ومستقلون (أحرار في اتخاذ القرارات)، من هذا المنطلق ذهب إلى القول بأن القوانين الأخلاقية العالمية ممكنة.

كان كانط يود إن يجد أساسا سليما لفلسفة الإيمان بالله، ووجد أن كل المحاولات الفلسفية لإثبات وجود الآلهة غير مرضية، بالنسبة لكانط إذا كان الله موجودا هي مسألة إيمان بدلا من العقل.

كانت جميع الفلسفات الغربية منذ عصر التنوير مصبوغة بكانط، والفلاسفة اليوم لا يزالون مشاركين بفاعلية في مناقشة أفكاره.

(1) مرجع سابق

## - الرومانتيكية Romanticism :-

الفترة الرومانسية أكدت على الذات والإبداع والخيال وقيمة الفن، هذا على النقيض من عصر التنوير الذى ركز على العقلانية والتجريبية.

ويمكن العثور على جذورها فى أعمال جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau وإيمانويل كانت Immanuel Kant , الفلاسفة والكتاب الذين ارتبطوا بالحركة الرومانسية شملوا يوهان فولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe (1749-1832)، فريدريخ فيلهلم يوزيف فون شيلينج Friedrich Wilhelm Joseph von Schelling (1775-1804)، وجورج فيلهلم فريدريخ هيغل George Wilhelm Friedrich Hegel (1770-1831) فى ألمانيا؛ صمويل تايلور كوليريدج Samuel Taylor Coleridge (1772-1834) وويليام وردزورث William Wordsworth (1770-1850) فى بريطانيا.

الرومانسية فلسفيا تمثل تحولا من الموضوعى إلى الشخصى , العلم يدعى وصف العالم الموضوعى، العالم الذى لا يفهم من وجهة نظر خاصة. تخيل ثلاثة أشخاص يشاهدون المناظر الطبيعية، واحد مزارع، والثانى فى مجال التطوير العقارى والثالث فنان , يرى المزارع إمكانية زراعة المحاصيل وتربية الماشية، والتطوير العقارى يرى الفرصة لبناء المنازل والفنان يرى ظلال ورقة اللون والشكل , أى أن ليس واحد من هؤلاء الأفراد يشاهد المنظر الطبيعى بشكل موضوعى، بل يشاهدونه من وجهة نظر معينة أو شخصية.

الانتقال من الموضوعى إلى الشخصى هو نتيجة لفكرة كانط بأن البشر لا يرون العالم مباشرة، ولكن من خلال عدد من الفئات. نحن لا نرى مباشرة "الأشياء فى ذاتها"، نحن لا نفهم العالم إلا من خلال وجهة نظرنا الإنسانية، وإذا اتفقنا مع كانط أننا لا يمكن أبدا معرفة الأشياء فى ذاتها، نحن كذلك قد نتخلص منها. وهذا يؤدي إلى المثالية، والاعتقاد بأن ما نسميه "بالعالم الخارجى" يتم إنشاؤه نحوا ما بعقولنا.

تركيز حركة التنوير على الحتمية التجريبية للكون ترك مجالا كبيرا للحرية والإبداع والروح الإنسانية، فالتركيز الرومانسى على الفن والخيال هو رد فعل مباشر حاسم لرؤية آلية بعض شخصيات عصر التنوير.

التركيز الرومانسى على الفرد قد انعكس على الأفكار فى إدراك الذات والطبيعة، وردورث Wordsworth اعتقد أن الفرد يمكن أن يفهم الطبيعة مباشرة دون الحاجة إلى المجتمع و الخداع الاجتماعى، فالخلاص يتحقق من قبل الفرد المنعزل وليس من خلال الحركات السياسية.

## جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau :-

"الإنسان ولد حرا، وهو فى كل مكان فى قيود" كتبها روسو فى عام 1762، وأعرب عن اعتقاده أن الحضارة تملأ "الإنسان" بحاجات غير طبيعية وتغويه بعيدا عن طبيعته الحقيقية وحرته الأصلية. فقد نسب لروسو فكرة "المتوحش النبيل Noble Savage" الذى لم يفسد بالخداع والمجتمع، ففى "Émile" (1762) وصف تربية الكائن الحر الذى شجع لتطوير التعبير عن الذات من خلال نبل الطبيعة وحرية الروح.

فى "العقد الاجتماعى Social Contract" (1762) حاول وصف المجتمع الذى فيه النبل الطبيعى يمكن أن يزدهر، حيث المجتمع يستند إلى تعاقد لكل فرد من شأنه أن يعطى كل حقوقه إلى المجتمع، ولكن جميع القرارات الجماعية سوف تستند إلى الديمقراطية المباشرة (ديمقراطية حيث كل عضو لديه الفرصة للتصويت على كل مسألة)، الجميع مشارك فى صنع القرار وينظر إلى التعاقد على أنه شرعى.

والدولة ينظر إليها تمثيل للصالح العام أو الإرادة العامة، وتلك الإرادة العامة سوف لا تكون مضطربة مع "إرادة الجميع will of all" : "إرادة الجميع" هى ما يعتقد الأفراد بأنهم قد يرغبون فيه ويشتمل الدوافع الأنانية، و" الإرادة العامة General will " هى ما يريده الناس إذا كانوا عقلايين ويعتبرونه بالضرورة جيدا، فإذا كان هناك شخص لا يريد الانصياع للإرادة العامة من ثم يجب أن "يجبر أن يكون طليقا"، تخيل مجموعة من الناس يحاولون عبور الجسر الذى هو غير معروف لهم، بأنه ضعيف وخطير، فحامى البوابة رفض السماح للمجموعة ان تمر فأنهم يشعرون بأن حريتهم قد بنرت فتبعوا لذلك هم ليس لديهم فهم كامل للوضع، فالبوابة أجبرهم على أن يكونوا طلقاء، فإذا لم يوقفهم عندئذ قد يلقون حتفهم على الجسر الضعيف، روسو يشبه هذا الوضع بالشخص الذى لا يفهم لماذا يجب أن يطيع الإرادة العامة. فلنطع ما هو الأفضل للجميع تحقق أقصى قدر من الحرية لكل منهم.

## الفن والخيال: شيلينج وكوليريدج Art and Imagination :-

اتفق شيلينج Schelling مع كانط Kant فى أن الأشياء الوحيدة التى لدينا معرفة مباشرة عنها هى الوعى، فالعالم الخارجى ينظر إليه كعامل مساعد لما هو أكثر واقعا : وهو العقل، والطريق الذى فيه يصل العقل إلى الوعى الكامل بنفسه يكون من خلال الفن.

كان كوليريدج Coleridge مهتماً بعلم نفس الإبداع الفنى وغير راضٍ بالفكرة التجريبية بأن العقل مجرد ممتصٍ سلبيٍ للتأثيرات، وبعد قراءة شيلينج للمثاليين وغيرهم، وجد وسيلةً لانتقاد الرؤية الزائدة لميكانيكية حركة التنوير.

الرؤية الآلية للعقل بالذرية atomistic وهى ببساطة مجموع تجربته، نظر كوليريدج إلى العقل بأكثر من مصطلح عضوى، بل يودى وظيفته أكثر شياً لكائن حى منه لمحرك، الكائن الحى يمكن أن يكون خلافاً، ولكنه من الصعب أن نرى كيف يمكن لمحرك أن يخلق الشعر.

يعتقد كوليريدج أن المثقفين لهم دوراً هاماً فى نشر الثقافة من أجل تحقيق مجتمع أقرب إلى حالة من الانسجام.

كما رأى كوليريدج أن نسخة المثالية يمكنها التوفيق مع معتقداته المسيحية، وأن نظريات كانط الأخلاقية كانت فى تناغم مع المشاعر المسيحية.

### هيجل وجيست Hegel and Geist :-

كان هيجل أكثر تأثيراً فى الفلاسفة المثاليين الألمان، ولعله الفيلسوف الأكثر أهمية منذ كانط، أصبح أستاذاً فى هايدلبرج فى عام ١٨١٦ وكان أستاذاً للفلسفة فى برلين من ١٨١٨ حتى وفاته فى عام ١٨٣١.

مثل المثاليين الآخرين اتفق مع كانط فى أن العقل ليس مجرد ممتصٍ سلبيٍ من العالم الخارجى، ولكن بفاعلية ينظمه، كما أن العقل لا يعرف الأشياء فى ذاتها، ما يصبح حقيقى هو جيست Geist: العقل، والروح. كما يقول هيجل: "الواقعى هو العقلانى والعقلانى هو الواقعى The Real is the Rational and the Rational is the Real".

يرى هيجل الجيست (الروح) Geist نامية عبر التاريخ، كل فترة لها Zeitgeist (روح العصر). هذه المراحل سوف تصل فى النهاية إلى telos (فى اليونانية "نهاية") من فهم الذات، وهذا هو عندما تصل جيست لتعرف نفسها.

فقط عندما جيست تعرف نفسها يمكن أن تكون حرة : من الممكن فقط أن تكون حرة إذا فهمنا الواقع. إذا كنا لا نفهم الواقع فإننا لسنا فى وضع يمكننا من إصدار حكم حر، نحن نكافح عبثاً ضد ما لا نفهمه.

بالنسبة لهيجل لكل شخص وعى أو عقل هو حقا جزء من العقل المطلق Absolute Mind، فالفرد فقط لا يدرك ذلك، إذا فهمنا أننا كنا جزءاً من الوعى الأكبر لم نكن قلقين للغاية بخصوص حريتنا الفردية، فإننا نتفق مع التصرف بعقلانية بالطريقة التى لا تتبع فيها هوانا الفردى، فبواسطة اتباع الحقيقى أو العقلانى كل فرد سوف يحقق الذات.

### - المثالية مقابل المادية Idealism Vs Materialism :-

الفلسفة فى أوروبا القارية بعد كانط أصبحت مثالية على نحو متزايد، فى حين لا يزال الفلاسفة مختلفين مع بعضهم البعض عن كل شىء تقريباً، الأمر الذى ظل يشغل القرن التاسع عشر تماماً بقرن الثامن عشر.

بعد هيجل ولد تفسيران مختلفان للهيجلية Hegelianism نتج عنهما مجموعتان مختلفتان: "الهيجليين القدماء Old Hegelians" الذين قبلوا دون تمحيص آراء هيجل و"الهيجليين الشباب Young Hegelians" الذين يريدون مواصلة ثورة الأفكار مستخدمين الجدلية الهيجلية. لودفيج فيورباخ Ludwig Feuerbach (١٨٠٤-١٨٧٢) وكارل ماركس Karl Marx (١٨١٨-١٨٨٣) كانا الأكثر تأثيراً من هؤلاء.

فى حين اعتقد هيجل بأنه وفق بين الدين مع فكرته بالعقل المطلق، أراد فيورباخ أن يرى الدين كمثال للوعى المبعد أو المنعزل، بالنسبة لفيورباخ أراد أن يبعث شيئاً من التجريبية والمادية فى فلسفته، الدين ليس وسيلة لفهم الجيست، بل هى انعكاس لطريقة بناء المجتمع.

بالنسبة لفيورباخ الرجل هو الذى يخلق الله على صورته، ومن ثم يسقط ويعبد خلقه. هذه فكرة الإنسان المثالى عن الله، وعن طريق إزالة هذه الصفات المثالية من أنفسنا وإسقاطها على شىء دينى، نحن نقصى أو نبعد أنفسنا عن جوهرنا أو وجودنا.

ماركس أيضاً ماضى أراد أن يكون أكثر تطرفاً من فيورباخ، فى حين أن فيورباخ رأى الدين اغتراب وباداً راضياً بترك المجتمع كما كان، أراد ماركس تطرف المجتمع؛ كما قال: "الفلاسفة فقط فسروا العالم بطرق مختلفة، والغاية هى تغييره."

كان هيجل ليس فقط الفيلسوف المهم بعد كانط، فقد كان آرثر شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠) معاصراً لهيجل، وأصبح شوبنهاور محاضراً فى جامعة برلين وقرر تقديم محاضراته فى نفس الوقت كهيجل، كما كان هيجل الفيلسوف الأكثر شهرة فى عصره، فإنه ليس من المستغرب أن شوبنهاور اكتسب بعض الطلاب، اعتقد شوبنهاور أن الحقيقة المطلقة ليست جيست، ولكن الإرادة.

كان شوبنهاور مؤثرا على الشاب فريدريخ نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900) الذى طور موضوع الإرادة، بالنسبة لنيته "إرادة القوة" هي القوة الدافعة الأساسية للطبيعة البشرية والفلسفة، لا يمكن أن نتخيل التحليل النفسى للقرن العشرين دون تأثير هؤلاء المفكرين العظماء.

هناك ثلاثة مواضيع متنافسة فى فلسفة القرن التاسع عشر: المثالية، والمادية والإرادة.

### جدلية هيغل Hegel's Dialectics :-

يعتقد هيغل أن الجيست تصل لتعرف نفسها من خلال تطور التاريخ. دعا هذه العملية "بالجدلية Dialectical"، العملية الجدلية فيها وضع البداية (الأطروحة the thesis) تبرهن على أنها غير كافية ولذلك نلقى بعاكسه (النقيض the antithesis). كل من هذه المواقف غير مرضية، والتقدم سوف يحدث فقط عندما الفهم الأفضل يحدث (التركيب the synthesis).

المثال غير الهيجلى يساعدنا على فهم الجدلية، دعونا نفترض أن لديك دراجة نارية، لكن لديك فهم محدود بها، الغاية من الدراجة النارية هو تمكك من السفر (الأطروحة)، بدأت على الدراجة النارية الخاص بك فى حالة من الجهل، كل ما تعرفه هو كيفية قيادتها، عاجلا أم آجلا، سوف ينفد الوقود، والدراجة سوف تقف، أى عكس من التحرك (النقيض)، ولكن فقط عندما تفهم الطريقة التى تعمل بها الدراجة النارية شاملة مفهوم إعادة التزود بالوقود (تحقق التركيب وتفهم الدراجة على مستوى أعلى) بذلك يمكنك من جعل الشئ يعمل.

### الجدلية المادية لماركس Marx's Dialectical Materialism :-

أخذ ماركس من هيغل مفهوم التطور التاريخى الجدلى، بالنسبة لماركس المجتمعات هي التى تتطور بدلا من الجيست.

ماركس يؤكد أنه يريد أن يبدأ من العالم "الحقيقى" التجريبي لإنتاج فهم علمى للتاريخ، التاريخ يتقدم من خلال عدد من الحقب، كل حقة لها ترتيب اقتصادى معين، أمثلة على العهود تشمل الإقطاعية (الاقتصاد كونه مبنى على ملكية الأرض) والرأسمالية (التي تتميز بالعمل المأجور ووجود رأس المال).

يعتقد ماركس أن كل عصرىحتوى على تناقضات اقتصادية، على أنه لا يمكن أن تحل إلا من خلال حركة لشكل اقتصادى جديد، فى الرأسمالية على سبيل المثال هناك أطروحة القوى المنتجة النامية (التكنولوجيا ومكان العمل الأكثر كفاءة). يعتقد ماركس أن نظام المصنع من شأنه أن يخلق البطالة والفقر باعتباره النقيض، فقط عندما تحدث الثورة وتستبدل الرأسمالية بالاشتراكية فإنه يحدث التركيب.

مساهمة ماركس مهمة للفلسفة، وليس للنظرية الاجتماعية، فهي نظريته فى الفكر: أن الأفكار السائدة فى كل عصر تعكس النظام الاقتصادى، فى المجتمعات الرأسمالية الليبرالية التركيز على مفهوم الحرية الفردية نظريتها ماركس كنتيجة للسوق الحرة الاقتصادية، وأن الأفراد الذين قد تم تضليلهم بهذه الفكرة قال إن لديهم "وعى زائف".

### من "الإرادة will" إلى "إرادة القوة will to power" شوبنهاور ونيته:-

بالنسبة لشوبنهاور الحياة نفسها هي تعبير عن القوة أو الطاقة الأساسية، دعاها "الإرادة"، أما الذات فجادل بأنها هي مظهر من مظاهر "الإرادة"، على الرغم من أن العديد من الدوافع غير معروفة لعقلنا الواعى، هذه الفكرة التى أصبحت معروفة باسم مفهوم "اللاوعى" أثرت فى علم النفس الفرويدى Freudian واليونجى Jungian، وكثيرا ما يشار إليه بأنه فيلسوف التشاؤم لأنه يعتقد أن هذه "الإرادة" ليس لديها غرض أو هدف؛ فهي السعى الأعمى، أفكاره متشابهة بالبوذية فى شعوره بأن الوجود ينطوى دائما على معاناة.

هناك ثلاث طرق يتمكن بها الإنسان من التغلب على هذه الإرادة الكونية العمياء وتحقيق الخلاص، الأولى هي تطوير التعاطف مع الآخرين (الخاصية التى يغرابه يفتقر إليها شوبنهاور فى حياته الخاصة)، ثانيا من خلال تطوير الفهم الفلسفى وثالثا من خلال التأمل الجمالى للأعمال الفنية، هذا هو الطريق الأخير الأكثر تأثيرا.

بالنسبة لنيته "إرادة القوة" هي محرك إنسانى أساسى، على عكس شوبنهاور الذى اعتقد أن إرادة القوة هي القوة الإبداعية وأن البشر سوف تتقدم إلى مستوى جديد من الوجود.

نيته انتقادى للفلسفة منذ الإغريق وللمسيحية، يقول أننا يجب أن نفصل اثنين من الجوانب المهمة عن أنفسنا: إن "ديونيسوس Dionysian" (الاحتفالى واللاوعى) و "أبولونى Apollonian" (الواعى والعقلانى)، بينما فقط عندما الفرد الإبداعى يعبر عن أرائه للقوة تتم بتركيب هذه العناصر عندئذ يتمكن من التقدم.

نيتشه انتقادي لأي فلسفة تدعى أنها تبين لنا الحقيقة النهائية، جميع "الحقائق" لنيتشه تفسيرات للعالم يقتضيها علم الأحياء، اللغة دائما تقترب من الواقع، من خلال اللغة إرادة القوة تجعلنا نشعر بوجودها.

### - الفلسفة التحليلية Analytic Philosophy -:

تحليل شيء يعنى تقسيمه إلى الأجزاء المكونة له، الفلسفة التحليلية تحاول التوضيح، عن طريق تحليل معنى البيانات والمفاهيم، كانت الفلسفة التحليلية مهمة في العالم الأكاديمي الناطق باللغة الإنجليزية منذ بداية القرن العشرين. بعد كانه الانشاق حدث بين الفلسفة الأنجلو أمريكية الأكاديمية والفلسفة الممارسة في القارة الأوروبية، الفلسفة "القارية" Continental " قلعت عن الاتجاه المثالي مع هيجل، واتخذت منحى الوجودية عبر نيتشه Nietzsche وهايدجر Heidegger ودخلت مرحلة معينة أقل مع ما بعد البنائية post-structuralism .

فالفلاسفة التحليليون من ناحية أخرى رأوا الفيلسوف الألماني جوتلوب فريجه Gottlob Frege (١٨٤٨-١٩٢٥) المفكر الأكثر أهمية منذ كانه، أراد فريجه وضع منطق صارم في قلب الفلسفة، كان مؤثرا في فلسفة الرياضيات، والمنطق، واللغة، واعتقد أن الأساس فيما يتعلق بالرياضيات يمكن بأحكام أن يشتق من المنطق وأن ذلك التحليل الدقيق للمنطق الكامن للجمل يمكننا من الفصل لمعرفة الحقيقة.

الفيلسوف البريطاني برتراند راسل Bertrand Russell (١٨٧٢-١٩٧٠) جمع بين رؤية فريجه المنطقية مع تأثير التجريبية لديفيد هيوم David Hume، يعتقد راسل أن العالم يتألف من "حقائق ذرية". الجمل إذا كانت ذات مغزى، وجب أن تتوافق مع هذه الحقائق الذرية. درس لودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١) تحت راسل، في وقت مبكر أفكاره أثرت في دائرة فيينا وساعدت على تشكيل الوضعية المنطقية logical positivism لعام ١٩٢٠ و ٣٠.

هناك قطيعة جذرية بين الأعمال المبكرة و الأخيرة لفيتجنشتاين، في عمله الأخير رأى فيتجنشتاين أن اللغة تصوير العالم، لاحقا في فلسفته فهم اللغة بواسطة استخدام مجاز عن اللعبة. هذا التغيير في الاتجاه حفز في تطوير "الفلسفة اللغوية"، في منتصف القرن العشرين، الفلاسفة اللغويون مثل جيلبرت رايل Gilbert Ryle (١٩٠٠-١٩٧٦) اعتقدوا أنه يمكن حل العديد من المشاكل التقليدية للفلسفة من قبل الدراسة المتأنية للغة كما يتم استخدامها.

بالقرب من عام ١٩٧٠ كان هناك استياء متزايد من الفلسفة اللغوية، والفلاسفة بدأوا يظهر من الاهتمام بفلسفة العقل وتطبيق الأساليب الفلسفية لقضايا أوسع في السياسة والأخلاق وطبيعة الفلسفة نفسها، ريتشارد رورتي (١٩٣١) Richard Rorty استخدم الأساليب الفلسفية التحليلية لتفكيك افتراضاته، رورتي تأثر إلى حد كبير بهيدجر Heidegger وكذلك بفيتجنشتاين، ونهجه له صدى لأفكار ما بعد البنائية، قد يكون في المستقبل من سيشهد العناية بتلقى الفلسفات "التحليلية" و "القارية".

### برتراند راسل: مذهب الذرية المنطقية Bertrand Russell: Logical Atomism -:

بدأ برتراند راسل Bertrand Russell (١٨٧٢-١٩٧٠) حياته المهنية الفلسفية بكونه مثالي، ولكن تم تحويله من قبل مور (١٨٧٣-١٩٥٨) إلى التجريبية الفطرية السلمية، كان يعمل مع وايتهد Whitehead (١٨٦١-١٩٤٧) على فلسفة الرياضيات، مثل فريجه حاول أن يظهر كيفية أن الرياضيات يمكن أن تستمد من المنطق، أدى عمله في المنطق لدراسة اللغة، واعتقد راسل أن النحو اللغة العادية مضلل، وأعتقد أن العالم يتألف من حقائق ذرية، والافتراضات إذا كانت صحيحة، فإنها تتوافق مع الحقائق الذرية، واحدة من المهام في الفلسفة تحليل الافتراضات للكشف عن 'الشكل المنطقي الصحيح'.

يعتقد راسل أن مصطلحات مثل "الرجل المتوسط" يمكن أن تؤدي إلى الارتباك وفي الجملة: "المرأة المتوسطة لديها ٢.٦ طفل"، ينبغي أن تفهم "المرأة المتوسطة" باعتبارها بناءً منطقياً، هذا المصطلح ليس حقيقة ذرية لكن بيان مركب رياضي متعلق بأعداد الأطفال لأعداد النساء، اعتقد راسل أن مصطلحات مثل "الدولة" و "الرأى العام" كانت بنايات منطقية والفلاسفة كانوا مخطئين في التعامل مع هذه المفاهيم على الرغم من أنها كانت موجودة حقا.

### لودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١): تراكتاتوس Tractatus -:

فيتجنشتاين جاء للدراسة تحت راسل في عام ١٩١٢ وساهم في نظرية مذهب الذرية المنطقية. وقد نشرت له "الاطروحة المنطقية الفلسفية Tractatus Logico-Philosophicus" في عام ١٩٢١، وفيها فيتجنشتاين طرح نظرية الصورة للمعنى، الصورة قد تعكس الواقع من خلال إظهار الأشياء وترتيبات الأشياء. قال فيتجنشتاين أن الجمل إذا كانت تعنى أي شيء يجب أن تعكس الواقع بنفس الطريقة التي تعكسها الصورة، الجمل تحتوى على الأسماء التي تشير إلى أشياء أو حالات في شؤون العالم، مثل راسل يعتقد فيتجنشتاين أن المظهر الخارجي لنحو البيانات يخفى الشكل المنطقي، من خلال تحليل بيان واقعي يظهر أنه يتكون من جزيئات أولية تصور العالم والثوابت المنطقية مثل "إذا"، "لا"، "و"، "أو"، "و". والجملة التي لاتصور العالم خالية من المعنى.

إذا كانت فقط البيانات التي تصور العالم بيانات عن حقائق ذات مغزى حينئذ هي بيانات عن الأخلاق والدين ، والكثير من الفلسفة ليس كذلك بالمعنى الدقيق للكلمة ذا مغزى. هذا ينطبق بقدر ما على أفكار فيتجنشتاين في تركتاتوس وكذلك الأفكار الفلسفية الأخرى. كما يقول في نهاية تركتاتوس، " الافتراضات بمثابة توضيحات على النحو التالي: أي شخص يفهمني في نهاية المطاف يدرك بأنها لا معنى لها، عندما يستخدمها - باعتبارها خطوات - لتسلق أبعد منها، لذا في الكلام يُرمى السلم بعيدا بعدما يكون قد صعد عليه. "

### دائرة فيينا: الوضعية المنطقية The Vienna Circle: Logical Positivism :-

تتألف دائرة فيينا من مجموعة من العلماء منطقيين و فلسفى التفكير. كان موريتز شليك (Schlick Moritz 1882-1928) - الزعيم الرسمي ، والاعضاء آخرين تضمنوا رودولف كارناب (Rudolf Carnap 1891-1970)، أوتو نيورات (Otto Neurath 1882-1945) وكورت جودل (Kurt Gödel 1906-1978). وقد تأثرت الدائرة بشدة بعمل فريجه وراسل. فيتجنشتاين بالرغم أنه لم يكن عضوا في المجموعة ناقش الفلسفة مع شليك Schlick وكارناب Carnap ، المجموعة كانت نشطة من منتصف عام 1920 ، ومع ذلك أجبرت المجموعة بسبب قتل شليك Schlick من قبل طالب مختل في عام 1936 والعداء المتزايد من النازيين الدائرة للتفريق.

الوضعية المنطقية التي مارستها الدائرة نظرت إليها على أنها تطور لتركاتوس Tractatus لفيتجنشتاين. فقط البيانات التي يمكن التحقق منها هي ذات معنى، كما وضعها شليك: "معنى الافتراض هو أسلوب التحقق من الحقيقة". كان أى شيء لا يمكن التحقق منه تجريبيا بلا معنى. وكانت البيانات عن الله والأخلاق والفن والميتافيزيقا للدائرة، حرفيا هراء، و التركيز على الوضعية كان كرد فعل ضد الرومانسية المثالية التي كانت مؤثرة في الفلسفة الألمانية. فدور الفلسفة لم يعد لوضع مخطط للوعى الذاتى بجيست Geist، بل كان ينظر إليها على أنها خادمة للعلم ، ببساطة محتوى لتوضيح المفاهيم.

### ريتشارد رورتى Richard Rorty : الفلسفة ومرآة الطبيعة :-

ريتشارد رورتى (1931 - ) هو الفيلسوف الأمريكى الذى تدرب على التقليد التحليلي. وخلافا للعديد من معاصريه تأثر إلى حد كبير بسارتر وهايدجر كما فيتجنشتاين. رورتى كان قادرا على التعبير عن اهتمامات ما بعد الحداثة ل"الفلسفة القارية" في لعبة اللغة من الأوساط الأكاديمية الأمريكية البريطانية. رورتى يقول إنه منذ ديكرات "اكتشاف العقل" وقد حاولت الفلسفة لتوفير الأسس الصخرية الصلبة لفهمنا للعالم. واعتقد كانط أنه يمكن تفسير العالم من خلال فئات خالدة شاملة، فالتمييز يتم بين العقل غير الطبيعي المنعكس وبين العالم الطبيعي المنعكس. فالغرض من الفلسفة الكشف عن شكل هذا الانعكاس.

وفما يتعلق بفهم الإنسان لرورتى فهو لا يقوم على البناء الموضوعى للعقل، على الأصح بأننا نفسر العالم من خلال مجموعة متنوعة من النماذج إذا لم يكن هناك وجهة نظر موضوعية للفلسفة ؛ فمن ثم الفكرة بأن الفلسفة ينظر إليها "كمملكة العلوم" موضحة ما يعتبر كمعرفة هي غير مستدامة، بالنسبة لرورتى ينبغي أن يكون الهدف للفلاسفة هو "مساعدة القراء أو المجتمع ككل للتخلص من المفردات البالية والمواقف، بدلا من توفير أسس للحدس وتقاليده للوقت الحاضر."

### - الوجودية Existentialism :-

بدأت جذور الوجودية مع كيركيغارد Kierkegaard في النصف الأول من القرن التاسع عشر. كان أنتقاديا لنظام هيجل الفلسفى الذى حلل الوجود بطريقة مجردة وغير شخصية، وأهتم كيركيغارد بالخبرة الشخصية للأفراد ما هو عليه فى الوجود كإنسان. بالنسبة لكيركيغارد الفرد باستمرار عليه الاختيار ما هو ليصبح عليه دون اللجوء إلى ما توصل إليه العلم والفلسفة. كيركيغارد يعتقد أن الفرد يمكن أن يختار العقيدة الدينية فى مواجهة العالم السخيف.

### إدموند هسرل Edmund Husserl :-

كان الألماني إدموند هسرل عالم ظواهر phenomenologist<sup>(1)</sup> (1859 - 1938) مؤثرا فى تطوير الأساليب التى استخدمت لاحقا من قبل الوجوديين. عالم الظواهر مهتم بالأشياء كما تظهر فى الوعى، وليس الأشياء فى ذاتها، استمر هذا التركيز على الوعى الذاتى للأفراد فى القرن العشرين كوجودية متقدمة.

### مارتن هايدجر Martin Heidegger :-

درس مارتن هايدجر (1889-1976) تحت هسرل، كان هايدجر مهتما فى "مسألة الوجود". اعتقد أن الفلسفة الغربية أكثر من مهووسة بمشكلة المعرفة، بالنسبة لهايدجر الفرد بكونه وجود فى العالم يتميز بالعمل والقلق: فمعرفة العالم ليس طريقنا الأساسى لكوننا فى العالم.

(1) phenomenology الحركة التى أسسها هسرل التى تركز على وصف مفصل للتجربة الواعية، دون اللجوء إلى تفسير، وافتراضات ميتافيزيقية، والأسئلة الفلسفية التقليدية.

في أعماله اللاحقة، أصبح هايدجر أكثر اهتماما بتاريخ المفاهيم في اللغة، واعتبر تحقيقاته على أنها محاولة للكشف عن طبيعة الوجود الخفية. كان سؤاله الأكثر جوهرية: لماذا يجب أن يكون هناك وجود على الإطلاق، عندما يمكن أن يكون هناك لاشيء؟ على الرغم من أن هايدجر ادعى أنه لم يكن "وجوديا"، إلا أن تأثيره على سارتر والحركة الوجودية لا يمكن إنكارها.

### **جان بول سارتر Jean Paul Sartre :-**

جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠) هو ربما الأكثر شهرة كوجودي، وكان كاتباً مسرحياً وروائياً موهوباً عرض عليه جائزة نوبل للأدب في عام ١٩٦٤، لكنه رفضها، اعتقد سارتر أنه لا يوجد طبيعة إنسانية أو جوهر ثابت ولذلك على الفرد أن يختار وجوده/وجودها، هذا الاختيار يحمل معه المسؤولية، أولئك الذين لا يختارون، ولكن يبنون أساس حياتهم على ترتيب مسبق لنظم أخلاقية وفلسفية قال أنهم يتصرفون بسوء اعتقاد.

### **سارتر: "الوجود يسبق الجوهر" Sartre: Existence precedes Essence :-**

كان جان بول سارتر Jean Paul Sartre واحداً من زعماء ما بعد الحرب الفرنسية للحركة الفكرية اليسارية الجناح، شارك مع موريس مرلو بونتي Maurice Merleau-Ponty (١٩٠٨-١٩٦١) في تأسيس مجلة "العصور الحديثة" *Les Temps Modernes*، تجاربه كمقاتل مقاوم شكلت فلسفته التي تأثرت بأفكار هسرل وهايدجر، سارتر ادعى سياسياً أنه ماركسي واعتقد أن الحرية لها كل من البعدين السياسي والفردى.

على عكس كيركيغارد كان سارتر ملحدًا، الله غير موجود لا يوجد "ماهيات essences". من حيث الجوهر، سارتر يتحدث عن توضيح مسبق للطبيعة الإنسانية، ما قصده سارتر من عبارة "الوجود يسبق الجوهر" هو: إذا لم يكن هناك مصمم كوني، فلا يوجد تصميم أو جوهر للطبيعة البشرية، الوجود الإنساني أو الوجود يختلف عن وجود الأشياء في الإنسان وهي النفس الواعية، هذا الوعي الذاتي أيضا يعطى الموضوع الإنساني الفرصة لتحديد نفسه، فالفرد يخلق بنفسه/ بنفسها عن طريق صنع خيارات بتوجيه ذاتي.

الوجود الإنساني كالوعي الذاتي بدون تحديد مسبق، فنحن ككائنات مستقلة - "حكم علينا أن نكون أحراراً" - مضطرون لصنع خيارات مستقبلية موجهة. هذه الخيارات تحث على القلق وعدم اليقين في نفوسنا. إذا كنا كأفراد، نتبع ببساطة التوقعات العرفية أو الاجتماعية من أجل الهروب من هذا القلق، فقد نجينا من مسؤولية اتخاذ خيارنا الخاصة بنا، وفي خلق جوهرنا. لقد تصرفنا عن سوء اعتقاد.

للمعمل بشكل حقيقي يجب علينا تحمل مسؤولية مستقبلنا، لا يمكننا اختيار ما نوع الجنس والطبقة، أو البلد التي ولدنا فيها، ولكن يمكننا أن نختار ما نصنع معهم، نحن أحرار في إنشاء التفسير الخاص بأنفسنا بعلاقتنا بالعالم، لإنشاء مشروع من الاحتمالات، من الأعمال الحقيقية كتعبير عن الحرية.<sup>(١)</sup>

### **ألبييرت كامس Albert Camus :-**

كان ألبييرت كامس (١٩١٣-١٩٦٠) - هو صحفي وروائي وفيلسوف - يعتقد أن الحياة كانت أساساً سخيفة؛ حيث إن العالم الحديث ملئ بالظلم، والملايين يعملون في وظائف استغلالية متكررة، يعتقد كامس أنه ينبغي علينا التمرد على هذه السخافات برفض المشاركة فيها.

فالوجودية في القرن العشرين تعكس فقدان اليقين في عالم ما بعد الحداثة، إذا لم يكن هناك إجابات واضحة عن السؤال الفلسفي للوجود، فمن ثم كل فرد عليه أن يصمم حياته الخاصة كمشروع، واختيار ومسؤولية المشروع تقع تماماً عليه.

### **كيركيغارد Søren Kierkegaard : المتجول المنعزل The solitary wanderer :-**

قضى سورين كيركيغارد حياة رائعة ولكن مضطربة، وأدرك والده نضجه الفكري المبكر الذي ثقفه قبل انتقاله إلى جامعة كوبنهاجن حيث درس لمدة ١٠ عاماً.

عندما كان شاباً بدأ كيركيغارد يشعر بأنه سيكون دائماً "غريباً"، في عام ١٨٣٧ سقط في الحب مع صاحبة الأربع عشرة سنة ريجين أولسون التي قام بخطبتها، ولكن بعد الاضطرابات الداخلية فك الخطبة، على قناعة بأن مصيره هو أن يكون "مستثنى"، ومتجولاً وحيداً.

يعتقد كيركيغارد أن الفلاسفة الذين زعموا أن الفلسفة يمكن أن تبين لنا الطبيعة النهائية للروح واهمون، ادعى هيجل أنه تغلب على التناقض، ولكن كيركيغارد لم يكن مقتنعاً. الوجود بالنسبة لكيركيغارد كان متناقضاً. يجب على الفرد إيجاد طريقه/

<sup>(١)</sup> <http://www.philosopher.org.uk/>

طريقها الروحي، ليس من خلال الطقوس العقائدية المريحة للكنيسة المنشأة أو الوضوح الزائف للجدلية الهيجلية، ولكن من خلال العمل، العمل الذى عن قناعة دينية مدركة.

كيركيجارد تمسك بأن الإيمان الدينى مركزى بالنسبة إلى الوجود الحقيقى، وأستمرت وجوديته المسيحية لتكون مؤثرة، وكان على علماء الدين مواجهة السخافات المروعة لقرن العشرين و الوجودية الدينية (أو التوحيدية) التى تبين كيف بإمكان الفرد، بالإيمان أن يكون أصيلاً فى عالم غير مؤكد.

## فلسفات القرن التاسع عشر الميلاد

أولا: الاتجاه العام للفلسفة الغربية الحديثة وتطورها.

تتنمى الفلسفة الغربية الحديثة أى الفكر الفلسفى فى الغرب فى المدة الممتدة من سنة ١٦٠٠ إلى سنة ١٩٠٠ ميلادية , بأسرها إلى التاريخ , فهى قد دخلت فى نطاق الماضى .

لقد ولدت الفلسفة الأوربية الحديثة , كما هو معروف , من انهيار الفكر المدرسى فى العصر الأوروبى الوسيط وقد ميز الفكر المدرسى الوسيط (١) . بعدة سمات , هى قوله **بالمذهب التعددى** (أى قبوله لوجود وحدات وجودية أو موجودات متعددة ودرجات مختلفة (أى قبوله لوجود وحدات وجودية أو موجودات متعددة ودرجات مختلفة من الوجود) , وأخذ **بالاتجاه الشخصائى** (أى الاعتراف بأولوية القيم الإنسانية للشخص على ما عداها) , وتصوره **العضوى للوجود** (٢) , كل ذلك إلى جانب اتجاهه الأساسى المتمثل فى **مركزية الإله** (أى أن الإله هو مركز الكون) حيث قال بالإله الخالق للموجودات .

ومن ناحية المنهج الذى اعتمده الفلسفة المدرسية الوسيطة , فإنها أخذت بطريقة التحليل المنطقى المفضل للمشكلات الجزئية .

فجاءت الفلسفة الغربية الحديثة وعارضت كل هذه السمات وكل تلك القضايا . ذلك أن مبادئها الجوهرية هى القول بالاتجاه الميكانيكى (٣) , الذى يستبعد التصور العضوى والتدرجى للوجود , وبالاتجاه الذاتى , الذى يجعل الإنسان مستقلا عن الإله ويحول اتجاه اهتمامه ناحية إلى ذات . ومن حيث المنهج , فإن الفلسفة الحديثة , قامت بنقد المنطق الصورى . كما تميزت , وإن تكن هناك استثناءات هامة , ببناء نظم فلسفية شامخة لا تعتمد منهج التحليل (٤) .

وقد كان من نصيب الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت ( ١٥٩٦ - ١٦٥٠ ) أن يكون أول من وضع هذه الثورة الفكرية فى قالبها الأكمل . ذلك أن ديكارت "ميكانيكى " أولا (أى يأخذ بالمذهب الميكانيكى) , فهو إذا كان يقول بوجود درجتين من الوجود: العقل والمادة , إلا أنه يرى أن الحقيقة غير العقلية تختزل بأسرها , أى تعود , إلى مفاهيم ميكانيكية خالصة (الوضع , والحركة , والدفع) , كما أن كل حدث يمكن تفسيره عن طريق قوانين ميكانيكية حسابية .

وفى نفس الوقت الذى يأخذ فيه ديكارت بالنزعة الميكانيكية , فإنه يعتمد الاتجاه الذاتى (٥) , حيث أن الواقعة الأساسية ونقطة البدء الضرورية للفلسفة فى نظره , إنما هى الفكر . أضف إلى هذا وذاك أن ديكارت يأخذ بالمذهب الإسمى: فليس هناك عنده (فى عملية معرفة العالم الخارجى) من إدراك حدسى بالعقل , وإنما هناك وحسب إدراك حسى للجزئيات . أخيرا فإن ديكارت كان خصما عنيفا للمنطق الصورى : فهو لا يعرف بالمعنى الحرفى للكلمة أى منهج يكون خاصا بالفلسفة , ويرى أن تطبيق على كافة مجالات المعرفة طرائق العلوم الرياضية فى دراستها للطبيعة , وإن لم يفحص ديكارت هذه الطرائق الرياضية فحفا فلسفيا .

وإذا ما قبل المرء هذه المبادئ فإنه يجد نفسه وقد قامت أمامه مشكلات لا حل لها: فإذا كان العالم مجرد تجمع من الذرات , وتكوينه يقارن بتكوين الآلة , فكيف نفس وجود عناصر روحية فيه؟ . ومن ناحية أخرى , كيف نستطيع الوصول إلى حقيقة هذا العالم ابتداء من الفكر الذى هو المعطى المباشر الوحيد لنا؟ . وأخطر من هذا وذاك , فإن السؤال الأهم هو: كيف تكون المعرفة ممكنة إذا كنا لا نعرف إلا الجزئيات , بينما تطبق المعرفة على تلك الجزئيات دائما مفاهيم كلية وقوانين عامة؟

(١) تبدأ الفلسفة الغربية الحديثة مع كل من بيكون وديكارت , ويختار لبدءها تاريخ اصطلاحى هو عام ١٦٠٠ م . أى بداية القرن السابع عشر الميلادى . ويفصل بين الفلسفة الغربية الحديثة والفلسفة المدرسية عصر هام هو عصر النهضة ( ١٤٥٠ - ١٦٠٠ م ) , وفيه أخذت فلسفة القرون الوسطى المسيحية تتلقى الضربات الشديدة حتى انهارت مع نهايته . وتمتد الفلسفة المدرسية , أو "الاسكولانية " أحيانا , من القرن العاشر إلى القرن السادس عشر الميلادى . وسميت كذلك على يد مفكرى عصر النهضة لأنها كانت تعلم وتتعلم فى "مدارس " , وكانت المدارس تحت سيطرة الكنيسة , التى كانت تأخذ بفلسفة أرسطو . وأهم سمة للفلسفة المدرسية منهجها الذى يهتم بالتعريفات والأفيسة المنطقية إلى درجة المماحكات اللفظية . ومن نافذة القول أن ذلك التيار الفلسفى اعتمد على سلطة أرسطو الفلسفية . ابتداء من حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى , بعد أن جعلتها كتابات القديس توما الأكوينى ( ١٢٢٤ / ٥ - ١٢٧٤ م ) على توافق معقول مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية .

(٢) أى القول بأن الوجود كله مترابط الأوصال , كأنه جسم واحد , له أعلى وأوسط وأسفل , وأفضل وأسوأ , والأعلى والأفضل هو الألوهية رأس الكون وعقله , والأسفل , الأسوأ هو المادة , وبينهما يقف الإنسان متوسطا رابطا الطرفين , فهو "عالم مصغر" صورة للعالم الكبير .

(٣) يقال الميكانيكى تشبيها للعالم بالآلة التى تسير وحدها بغير تدخل من عقل أو توجيه . ويقصد بالاتجاه الميكانيكى القول بأن أحداث العالم لا ترتبط فيما بينها إلا برباط العلية (أو السببية) وأن الحركة هى الظاهرة العامة فى الطبيعة , ولها قوانينها الخاصة . والميكانيكية تقابل النزعة العضوية الحيوية من جهة , وتقابل النزعة الديناميكية التى تقول بالتفاعل بين القوى تفاعلا متبادلا , بينما الميكانيكية تركز على الانفصال بين الأشياء وتفصل ما بين المادة والقوة وترى كل الأحداث نتائج للحركة لا للقوى المتفاعلة .

(٤) لاحظ أن كل هذه الخصائص تقابل واحدة بواحدة , على وجه التقريب , خصائص الفلسفة المدرسية المذكورة , سمات ومنهجاً .

(٥) ما يسميه المؤلف هنا الاتجاه الذاتى هو الذى قد يسمى أحيانا "المثالية " إذا اقترن مع الأخذ بالمذهب العقلى . ولكن يبدو أن المؤلف يستخدم هذا الاصطلاح استخداما مخصوصاً , ويحدده فى الجملة التالية فى النص .

وقد قدم ديكارت نفسه حلاً لهذه المشكلة الأخيرة بافتراض وجود أفكار فطرية ، ووجود موازاة بين قوانين الفكر وقوانين الوجود<sup>(١)</sup>. فقد أفسح له "الكوجيتو"<sup>(٢)</sup> الطريق للانتقال من الفكر إلى الواقع ، بحيث أقام ديكارت بين العقل والمادة علاقة العلة والمعلول . وقد أخذ عدد من المفكرين، الذين يسمون خطأً "بالعقليين" ، بنظرية الأفكار الفطرية. وأهمهم : اسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧ م)، وليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) وفولف (١٦٧٩ - ١٧٥٤ م) وقامت مجموعة أخرى، هي مجموعة الفلاسفة التجريبيين الإنجليز ، بالاتجاه في طريق يبدو أكثر منطقية من طريق الآخرين: فهم يقبلون بالمذهب الميكانيكي ، وهو ما يتفق مع اتجاههم التجريبي ، ويوسعون من تطبيقه ليشمل العقل نفسه ، ويقولون بالاتجاه الذاتي والاتجاه الاسمي المتطرف<sup>(٣)</sup>.

وقد وجدت هذه الأفكار على نحو غير واضح عند فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦ م) ولكن الذين وضعوها في عرض منظم هم جون لوك (١٦٣٢-١٧٥٤م) وجورج باركلي (١٦٨٥-١٧٥٣ م) وعلى الأخص ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦ م) . ويرى هذا الأخير أن النفس ما هي إلا حزمة من الصور ، هي التي نسميها " أفكارا " . هذه الأفكار هي وحدها التي يمكن أن تعرف معرفة مباشرة ، أما القوانين العامة فهي ليست إلا نتاجاً للقدرة على الارتباط التي تظهر بفضل العادة<sup>(٤)</sup> ، وبالتالي فليس لتلك القوانين العامة أية قيمة موضوعية.

وهكذا فإن هيوم يرى أن محض وجود عالم حقيقي لا يقوم إلا على الاعتقاد<sup>(٥)</sup> ، ولا يحمي هيوم من الشك المطلق إلا أخذه بمذهب الاعتماد على الإيمان. وفيما عدا هذا ، فإنه يشك في كل شيء: في العقل، في الحقيقة ، وفي المعرفة على الأخص. في نفس هذا الوقت ، أدى تقدم العلوم الطبيعية إلى ميلاد التصور المادي للكون ، الذي تطور واتسع طاماً لما لم يجد أمامه أية فلسفة معارضة تقاومه. وهكذا فإن المذهب المادي ، الذي بشر به توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م) من قبل ، ازدهر في فلسفات بونيه (١٧٢٠ - ١٧٩٣ م) ولامترى (١٧٠٩ - ١٧٥١ م) وهولباخ (١٧٢٣ - ١٧٨٩ م) وديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤ م) وهلفتيوس (١٧١٥ - ١٧٧١ م)<sup>(٦)</sup>.

### ثانياً: الفيلسوف الألماني كانت:-

في هذا الإطار الباعث على اليأس ، والذي كان كارثة على العقل ، ظهر الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) "Kant" ، الذي أخذ على نفسه إنقاذ العقل والعلم والأخلاق والدين ، بدون أن يتنكر في نفس الوقت لأي من المبادئ الأساسية للفكر الأوربي الحديث. فهو يقبل المذهب الميكانيكي كما هو وعلى علته ، وعنده أنه يحكم العالم التجريبي وأحداثه ، بما في ذلك الفكر الذاتي<sup>(٧)</sup>. ولكن كانت يرى أن هذا العالم التجريبي هو نتاج تركيب قامت به الذات الترانسندنتالية (المتعالية transcendental) معتمدة على كم هائل ، ينقصه التنظيم ، من الاحساسات. وهكذا فإن قوانين المنطق والرياضيات والعلوم الطبيعية تحكم العالم التجريبي وأحداثه ، لا لشيء إلا لأن العقل يدخلها في ذلك العالم. وفي نفس الوقت فإن العقل لا يخضع هو نفسه لهذه القوانين ، لأن العقل لا يأتي من العالم الحسي ، بل هو بالأحرى مشرّع له ، وهو منبع القوانين التي تحكمه هكذا ينقذ كانت ، وبضربة واحدة ، العلم والعقل. ولكن في ظل هذه الشروط تصبح معرفة "الشيء في ذاته"<sup>(٨)</sup> ، أي معرفة الحقيقة الموجودة في ذاتها والتي تتعدى الاحساسات ، تصبح غير ممكنة: ذلك أن المعرفة تنحصر في نطاق الحدس الحسي، وبدون الاحساسات فإن مقولات العقل فارغة<sup>(٩)</sup>.

وينتج عن هذا أن المشكلات الكبرى للوجود والحياة الإنسانية لا حل لها. فعلى مستوى المعرفة يستحيل إقامة علم للميتافيزيقا. وصحيح أن كانت قد تصدى من بعد مشكلات وجود الإله وخلود النفس والحرية<sup>(١٠)</sup> ، وهي عنده مشكلات الفلسفة الثلاثة

(١) وهو ما يحل مشكلة الثانية الخاصة بالعلاقة بين الذات والموضوع.

(٢) الكوجيتو هو مبدأ ديكارت الشهير: «أنا أفكر إذن أنا موجود».

(٣) الاتجاه الاسمي المتطرف هو القول بأنه لا وجود للكليات على أي وجه ، وإنما كل شيء في العقل مجرد أسماء اصطلاح عليها.

(٤) العادة أي تكرار التجربة ، فيتحقق الربط بين شئين.

(٥) أي لا يمكن البرهنة عليه عقلياً ، لأنه من المستحيل الانتقال مما في الذهن إلى الواقع.

(٦) الأول إنجليزي ، والرابع ألماني عاش في فرنسا وكتب بالفرنسية ، والثالث والخامس أهم أعضاء مجموعة الأنسكلوبيديين (الموسوعين) الفرنسية. أما المذهب المادي فإن أساسه أنه لا يوجد في الكون غير المادة ، على ضد ديكارت الذي رأى أن هناك المادة وفوقها العقل.

(٧) الذاتي هنا يعني الأفكار النفسية للفرد المحدد.

(٨) noumenon (في فلسفة كانت) شيء كما هو في حد ذاته، لا ينظر إليه أو يفسر، وغير قابل لأن يكون معروف، ولكن يستدل عليه فقط من طبيعة التجربة. فهو موضوع حدس فكري بحت. <http://www.thefreedictionary.com/noumenon>

(٩) أي فارغة من المادة التي هي المدركات الحسية. وهناك قول مشهور لكانت: "العقل بغير الحس فارغ، والحس بغير العقل أعمى".

(١٠) تصدى لها في نطاق فلسفة الأخلاق لا في إطار نظرية المعرفة.

الكبرى , ولكنه قدم حولا لهذه المشكلات بالاعتماد على أدوات غير عقلية , فهي تصبح عنده "مسلمات" للإرادة<sup>(١)</sup>. يظهر ما سبق أن الفلسفة الكانتية تتركب من العنصرين الجوهريين للفلسفة الغربية الحديثة , أى **الاتجاه الميكانيكي والاتجاه الذاتى**<sup>(٢)</sup>.

وتقوم فلسفة كانت على موقف تصورى<sup>(٣)</sup> متطرف: فالذات الترانسندنتالية , باعتبارها مبدأ منظما , هى التى تخلق المضمون العقلى. أى الذى يمكن إدراكه بالعقل , للعالم , وهذا المضمون يختزل فى النهاية إلى عدد من العلاقات , لا أكثر.

وهكذا تنقسم الحقيقة إلى ميدانين : **العالم التجريبي أو عالم الظواهر** , الذى يخضع كله تمام الخضوع لقوانين الميكانيكا , و**عالم الوجود فى ذاته** , أو "**النومين noumenon**" , الذى لا قدرة لنا على معرفته معرفة عقلية.

لقد كان من نصيب كانت أن يضع الفكر الغربى الحديث فى صورته الأقوى وفى تعبيره الأكمل , ولكنه وضعه فى نفس الوقت على قضبان طريق محتوم<sup>(٤)</sup>. ومهما قال المؤرخون فى حق تأثير الفلسفة الكانتية على التطورات اللاحقة للفلسفة الغربية , فإنهم لن يوفونها حقها كاملاً. فهى تسيطر على القرن التاسع عشر الميلادى , ورغم ظهور اتجاه مضاد لاتجاهها فى نهاية ذلك القرن , إلا أن بعض المفكرين سيستمرون فى القرن العشرين الميلادى فى الخضوع لسلطانها. وهى أيضا تقف موقع المنبع من تيارات الفكر الكبرى فى القرن التاسع عشر الميلادى فى الحضارة الغربية. ذلك أن كانت , حين نازع فى إمكان قيام أية ميثافيزيقا على أساس عقلى , لم يترك أمام المعرفة إلا واحدا من طريقين : إما أن تترك العالم مناهج العلم , وفى هذه الحالة سوف تنكمش الفلسفة لتصبح تركيبا من النتائج المتنوعة التى توصلت إليها العلوم المختلفة , وإما أن تدرس الخطوات التى بها يتكون الواقع ابتداء من مبادئ العقل المنظمة , وفى هذه الحالة تصبح الفلسفة تحليلا لتكوّن الأفكار وأصلها وصيرورتها.

والواقع أن أعظم تيارين فى القرن التاسع عشر الميلادى ماهما إلا تطوير لهاتين الإمكانيتين: فالمذهب الوضعى والمذهب المادى يختزلان دور الفلسفة إلى مهمة تجميع نتائج العلوم , بينما يتجه المذهب المثالى إلى تكوين نظم فلسفية يحاول فيها تفسير العالم على أنه نتاج لحركة الفكر.

### ثالثا: الرومانتيكية:-

تدخل عامل آخر لتوجيه تطور الفكر الأوربي فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى , وقد لهذا العامل أن يكون ذا دور مؤثر من بعد: ذلك هو المذهب الرومانتيكى<sup>(٥)</sup>. والحركة الرومانتيكية حركة شاملة , ومن الصعب على المؤرخ أن يعرفها تعريفا محددًا. ولكن يمكن أن نقول , بدون أن نذهب فى التبسيط مذهبا بعيدا , إن الاتجاه الرومانتيكى هو فى جوهره تمجيد للحياة وللنفس , ويفسر ظهوره على أنه رد فعل قوى مضاد للمذاهب الميكانيكية. وكان الفيلسوف الألمانى كانت قد حاول إزالة آثار هذه المذاهب بطرائق عقلية , وبقيت طريقة أخرى : هى عدم الاعتماد على العقل. وكان من الطبيعى أن يرتفع الاعتراض على العلم العقلى من جانب شعراء وفنانين وكتاب أزعجهم عقم الوصف العلمى للعالم , فعارضوا العلم بالعاطفة وبالحياة وبالدين , معلنين أن هناك طرقا أخرى غير طرق العلم للوصول إلى الحقيقة .

ولكن المذهب الرومانتيكى ليس دائما مذهبا لا عقليا , بل أنه يظهر أحيانا مدافعا مخلصا عن العقل. ولكن الذى يؤكد عليه دائما هو الاندفاع المتحمس والحياة والتطور. وكانت فلسفات القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين قد دافعت عن تصور سكونى للعالم , وكان المذهب الميكانيكى يرى أن آلة العالم قد أرسيت قواعدها مرة واحدة وإلى الأبد , وأنها مجموعة هائلة من التروس لا يفقد منها شئ , ولكن لا يخلق فيها شئ أيضا. فجاءت الحركة الرومانتيكية وهاجمت بكل عزمها وطاقتها تلك الصورة عن العالم , وبفضل صيحتها هذه احتفظت لنفسها بتأثير عظيم جدا على مدى القرن التاسع عشر كله فى الحضارة الغربية.

(١) اعتبر كانت أنه لا قيام للسلوك الأخلاقى بدون المسؤولية والثواب والعقاب , وهذا كله يفترض قيام الحرية ووجود النفس التى تختار وجود الإله الذى يجازى. وهكذا فإن لم يمكن البرهنة عقليا على وجود الإله , فإن هذا الوجود , مع ذلك , ضرورة أخلاقية. ويقصد كانت بالمسلمات قضايا نظرية غير مبرهن عليها فى ذاتها , ولكنها مرتبطة لقوانين أخلاقية صحيحة.

(٢) الاتجاه الذاتى هنا هو الذى يسمى مثاليا , أى القول بأولوية العقل والفكر على المادة.

(٣) Conceptualism وتقال التصورية هنا على مذهب كانت بصفة خاصة لأنه رفض الاتجاه العقلى والاتجاه التجريبي معا , وقال بمشاركة العقل والحس معا فى عملية المعرفة , التى تنتهى نظريتها إلى وجود تصورات فى الذهن أصلها حسى , ولكنها تمتاز بالموضوعية والعمومية.

(٤) ربما يقصد المؤلف طريق النزعة الذاتية الضيقة.

(٥) يقال "رومانتيكى" فى الاستخدام العادى بالعربية للموغل فى الخيال , وليس هذا الاستخدام بعيد عن المعنى الأصلى. والرومانتيكية فى أصلها بدأت مع أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلادى وسيطرت عليه , وهى حركة أدبية أولا , ولكنها ظهرت كذلك فى ميادين الفن الأخرى. ويقال "الرومانتيكية الفلسفية" على رد الفعل الفلسفى فى ألمانيا خاصة ضد تيارات القرن الثامن عشر الميلادى الأخذة بالعقل والعقل وحده وضد حركة "التنوير" على الأخص , بما أشار إلى وجود قوى أخرى للإنسان غير العقل , أهمها العاطفة والحس المرتبطان بالحياة وباللانهاى.

## رابعاً: التيارات الرئيسية:-

من أهم سمات القرن التاسع عشر الميلادي الاتجاه القوى نحو بناء نظم فلسفية : فالتركيب يعلو شأنه على التحليل.

وقد ظهر هذا الاتجاه في بداية تلك الفترة في المثالية الألمانية بوجه خاص. وكانت قد أكد على الوظيفة الخلاقة للعقل , فتوسع تطبيق هذه الفكرة ومزجت مع فكرة الرومانتيكية عن الفكر الذي هو في صيرورة دائمة. من هذا المزج خرجت مذاهب الفلاسفة الألمان فشته ( ١٧٦٢ - ١٨١٤ م ) وشلنجر ( ١٧٧٥ - ١٨٥٤ م ) وعلى الأخص هيغل ( ١٧٧٠ - ١٨٣١ م ).

وقد تصور هيغل الحقيقة الوجودية على أنها نمو جدلي للعقل المطلق الذي يصل دائماً إلى تركيبات جديدة ابتداء من مفهومي القضية ونقيض القضية. وفلسفة هيغل تقدم مذهباً عقلياً شاملاً, ولكنها في نفس الوقت رومانتيكية جداً بسبب طابعها الديناميكي والتطوري.

وقد حلت عدة مذاهب متأثرة بالعلم محل المثالية الألمانية بعد هيغل. ولندكر أولاً المادية الألمانية عند فويرباخ ( ١٨٠٤ - ١٨٧٢ م ) وموليشط ( ١٨٢٢ - ١٨٩٣ م ) وبوخنر ( ١٨٢٤ - ١٨٩٩ م ) وكارل فوجت ( ١٨١٧ - ١٨٩٥ م ) وقد نفت مذاهبهم وجود العقل ذاته ودافعت عن الحتمية الشاملة<sup>(١)</sup>.

ولندكر بعد ذلك الفلاسفة الوضعية التي أسسها في فرنسا أوجست كونت ( ١٧٩٨ - ١٨٥٧ م ) , ويتبعه جون استوارت , مل ( ١٨٠٦ - ١٨٧٣ م ) في إنجلترا , وأرنست لاس ( ١٨٣٧ - ١٨٨٥ م ) ويودل ( ١٨٤٨ - ١٩١٤ م ) في ألمانيا. وقد رأى هؤلاء جميعاً أن الفلسفة ليست إلا تجميعاً لنتائج العلم , العلم مأخوذاً بالمعنى الميكانيكي. وقد تأيد هذان الاتجاهان , المادي والوضعي , تأييداً عظيماً بمذهب تشالرز دارون ( ١٨٠٩ - ١٨٨٢ م ) , العالم الإنجليزي الذي فسّر تطور أنواع الكائنات الحية تفسيراً ميكانيكياً بحثاً<sup>(٢)</sup> , وذلك في كتابه الشهير في أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي ( الصادر عام ١٨٥٩ م ).

وهكذا استقرت فكرة التطور الرومانتيكية والهجولية على أساس علمي , وفي نفس الوقت فإنها أصبحت تفسر تفسيراً ميكانيكياً. فصارت فكرة التطور مذهباً شاملاً عاماً , وأدت إلى ظهور المذهب التطوري الواحد الذي دافع عنه على الخصوص توماس هنري هكسلي ( ١٨٢٥ - ١٨٩٥ م ) , وهيربرت اسبنسر ( ١٨٢٠ - ١٩٠٣ م ) , بينما نشره بين مختلف طبقات القراء الألماني إرنست هيكل ( ١٨٣٤ - ١٩١٩ م ).

وكان يظهر للناس في الأعوام ١٨٥٠ - ١٨٧٠ م وكأن الاتجاه التطوري الميكانيكي , والمادي كذلك في معظم الأحيان , سوف يستمر في السيادة على الأفكار في أوروبا. ولكن هاهي العودة إلى المثالية تعود إلى الظهور حول عام ١٨٧٠ م. في إنجلترا أولاً مع توماس هيل جرين ( ١٨٣٦ - ١٨٨٢ م ) وإدوارد كيرد ( ١٨٣٥ - ١٩٠٨ م ) , وتبعتهما هناك مدرسة هامة , ثم في ألمانيا بعد ذلك مع المدرسة الكانتية الجديدة<sup>(٣)</sup> ممثلة في ليبمان ( ١٨٤٠ - ١٩١٢ م ) وفولكلت ( ١٨٤٨ - ١٩٣٠ م ) , ومدرستي جامعتي ماربورج وبأدي اللتين أقامتا مركزين منظمين للدراسة. أما في فرنسا , فقد درّس رينوفييه ( ١٨١٥ - ١٩٠٣ م ) مذهباً في النقدية الجديدة , ومن المثاليين الفرنسيين المهمين كذلك هاملان ( ١٨٥٦ - ١٩٠٧ م ). ولكن المذهب المثالي لم يستطع أن يفرض نفسه بالكلية على العقول , حيث استمرت اتجاهات وضعية وتطورية قوية تعبر عن نفسها جنباً إلى جنب مع المذهب المثالي حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

وهكذا يمكن أن نحدد ثلاثة مراحل لتطور الفكر الأوربي في خلال القرن التاسع عشر الميلادي , وهي : **المثالية ثم مذهب التطور على الطريقة العلمية ثم تعايش التيارين معاً.** ورغم تعارض المثالية ومذهب التطور العلمي , إلا أن الحركتين تشتركان معاً في خصائص جوهرية , وهي :

- **الاتجاه نحو بناء النظم الفلسفية** ,
- **اتجاه عقلي واضح إزاء العالم التجريبي** ,
- **رفض النفاذ إلى العالم الذي يعلو الظواهر , أو أيضاً نفى وجود مثل ذلك العالم ,**
- **وأخيراً الاتجاه الواحدي , الذي يذيب الشخص الإنساني إما في المطلق أو في تيار التطور الكلي.**

وهكذا فإن الاتجاه العقلاني والانعصار في عالم الظواهر والقول بالتطور والواحدية اللاشخصية وبناء النظم الفلسفية , كل هذا هو ما يشكل إلى حد كبير هيئة الفكر في خلال القرن التاسع عشر الميلادي في الحضارة الغربية.

(١) Determinism مبدأ يفيد عموم القوانين الطبيعية وثبوتها. فلا تخلف ولا مصادفة. ويقوم على مجموعة الشروط الضرورية لتحديد ظاهرة ما , فكل شيء في الوجود يرد إلى العلة والمعلول , وعلى هذا المبدأ يعتمد الاستقرار في العلوم الطبيعية. وهذه الحتمية الصارمة التي تحكمت في التفكير العلمي في القرن التاسع عشر اهتزت وتزعزعت في القرن العشرين. وقد تمتد هذه الحتمية إلى الظواهر الإنسانية , فتحضنها لظروف وعوامل سيكولوجية وطبيعية , وتتعارض مع حرية الإرادة وتختلف الحتمية عن الجبرية التي تخضع الطبيعة لقوى خارجة عنها (هي الألوهية عادة) , في حين أن الحتمية تعتمد على ضرورة كامن في الطبيعة ذاتها (المعجم الفلسفي « لمجمع اللغة العربية » ص ٦٧). والجبرية ( Fatalism ) هي مذهب من يرون أن كل شيء يتم على نحو لا مرد له , فلا تستطيع قدرة الإنسان ولا إرادته أن تغير شيئاً في مجرى الحوادث. وتمثل الجبرية في التراث الإسلامي الجهمية الذين يرون كل شيء إلى الله , والعبدهم أشبه ما يكون بريشة في مهب الريح .

(٢) من مجالى أهميته أنه طيق منهج التفسير الميكانيكي على الحياة ذاتها , وهي تعارض بطبيعتها المفهوم الميكانيكي.

(٣) أي المدارس التي تعيد تفسير فلسفة كانت وتعتمد على أسسها

## خامسا: تيارات جانبية:-

لم تتسبب المثالية والتطورية الوضعية وحدهما الفكر الأوربي في الفترة المشار إليها , حيث تطور تياران آخران بموازاتهما , وإن كانا أقل أهمية وأقل تأثيرا في الظاهر , ولكنهما يحوزان أهمية حقيقية رغم ذلك. فقد ظهر **الاتجاه اللاعقلي** أولا , وهو الناتج عن الحركة الرومانتيكية وخلفها , ليعارض المذهب العقلي الهيجلي. وممثل هذا الموقف هو شوبنهاور الفيلسوف الألماني ( ١٧٨٨ - ١٨٦٠ م ) , الذي يرى أن المطلق ليس العقل , بل إرادة عمياء ولا عقلية . وإلى جانب شوبنهاور ظهر المفكر الدا نمركي كيركجارد ( ١٨١٣ - ١٨٥٥ م ) ليدفع إلى مدى أبعد الهجوم على المذهب العقلي. وكان قد ظهر قبلهما في فرنسا تيار يدافع عن الإرادة ويدعو إلى الاتجاه اللاعقاب هو الآخر , وإن كان تيارا أقل ظهورا , وقد مثله مين دي بيران ( ١٧٦٦ - ١٨٢٤ م ).

وفي مرحلة تالية , وبعد الهجوم على المذهب العقلي الهيجلي , هاجم الاتجاه اللاعقلي مذهب العقلي العلمي , وهو هنا سوف يعتمد في هجومه على نظرية التطور عند دارون. وكان النبي المعبر عن هذا الموقف هو نيتشه ( ١٨٤٤ - ١٩٠٠ م ) , الذي يعلن أولوية الاندفاع الحيوي على العقل , ويطالب بمراجعة كل القيم , وينادي بعبادة الرجل العظيم. وكان اعتماد فلسفة دلتاي ( ١٨٣٣ - ١٩١٢ م ) هي الأخرى على الاتجاه التطوري , ويؤكد هذا الفيلسوف الألماني على أولوية التاريخ وعلى نسبية الفلسفة. ثم تجد النزعة النسبية ممثلا إلا يقدمها في صورة جديدة في شخص الفيلسوف الألماني سيميل ( ١٨٥٨ - ١٩١٨ م ).

أما التيار الثانوي الآخر من تيارات القرن التاسع عشر الميلادي في الحضارة الغربية فهو تيار **الميتافيزيقا**. ودعوى فلاسفة هذه المدرسة تقوم في أنهم قادرون على الوصول إلى عالم يقع فوق عالم الظواهر. ونلاحظ غالبا عندهم ميلا نحو الأخذ بالتعددية الميتافيزيقية مقرونا بتفهم عظيم مشكلات الإنسان الواقعي. ولم يشكل هذا التيار مدارس مهمة , ومثله مفكرون منفردون. ولنذكر منهم في ألمانيا هربرارت ( ١٧٧٦ - ١٨٤١ م ) وفشنر ( ١٨٠١ - ١٨٨٧ م ) ولوطزه ( ١٨١٧ - ١٨٨١ م ) وفون هارتمان ( ١٨٤٢ - ١٩٠٦ م ) ثم يأتي من بعدهم , مع تنويعات هنا وهناك , فنت ( ١٨٣٢ - ١٩٢٠ م ) وأيكن ( ١٨٤٦ - ١٩٢٦ م ) وبولسن ( ١٨٤٦ - ١٩٠٨ م ). أما في فرنسا , فإن الأخذ بالتيار الميتافيزيقي هم فيكتور كوزان ( ١٧٩٢ - ١٨٦٧ م ) وتلامذته (ومنهم بول جانيه : ١٨٢٣ - ١٨٩٩ م). ولكن النظم الفلسفية التي بناها كل من رافيسون ( ١٨١٣ - ١٩٠٠ م ) ولاشلييه ( ١٨٣٢ - ١٩١٨ م ) تقدم ذلك التيار في صورة أقوى. وعلى عكس الحال في ألمانيا وفرنسا , فإن التيار الميتافيزيقي لم يظهر في صورة ملفتة للنظر في إنجلترا.

وهناك أمر يشترك فيه التيار اللاعقلي مع التيار الميتافيزيقي ألا وهو الانطلاق من مواقف فلسفة كانت والاعتماد عليها. ذلك أن المذهب اللاعقلي ينتج مباشرة , من جهة , عن المذهب الكانتي القائل بعدم إمكان نفاذ العقل إلى مشكلات الميتافيزيقا , كما أن معارضته للاتجاه العقلي عند كانت يشكل خطأ هاديا له , من جهة أخرى. كذلك , فإن تأثيرات من الاتجاه التجريبي الميكانيكي , على الطريقة الداروينية , تظهر في المذهب اللاعقلي , وخاصة عند نيتشه. ونفس الحال أيضا فيما يخص الفلسفة الميتافيزيقيين , رغم أن هذا قد يبدو مستغربا.

فهم جميعا يأخذون بثنائية عالم الظواهر وعالم الوجود في ذاته , كما أن معظمهم ينحاز إلى جانب الموقف الميكانيكي. ولنوجه الانتباه إلى أن هذين التيارين , وأهميتهما محدودة إلى حد ما , لا يقارنان بتيار المثالية والتجريبية , وهما التياران اللذان سادا الفلسفة الأوربية في القرن التاسع عشر الميلادي.

## الأزمة

### أولا: المتغيرات

دخلت الفلسفة الغربية دور أزمة عميقة عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين الميلاديين وتتمثل أعراض هذه الأزمة في ظهور حركات فكرية تعارض المذهبين الأهميين في الفكر الأوربي الحديث , أى المذهب الميكانيكي المادى والمذهب الذاتى . وهذا التغيير لا يقتصر على ميدان الفلسفة , بل يمتد إلى ما وراءه<sup>(١)</sup> , ويمكن أن نقارنه مع الأزمة الكبيرة التى أنتجت فى عصر النهضة الأوربية الثقافة الأوربية الحديثة كلها . ومن الصعب كثيرا أن نحدد كل علة هذه الأزمة , وهى علة متعددة بقدر ما هى متداخلة , ولكن الوقائع على الأقل واضحة : فقد وقعت أوروبا فى تلك الأونة تحت ضغط حركة عميقة من الفكر الاجتماعى , واضطرابات اقتصادية خطيرة , وتجديدات جذرية فى الفن , وإصلاحات واضحة فى ميدان الدين . ويتفق المؤرخون , على أى حال , على أن بداية القرن العشرين الميلادى ليست وحسب نهاية مرحلة , بل إنها إسدال للستار على مرحلة تاريخية طويلة , انتهى أمرها الآن وكان , إلى درجة أن العصر الجديد فى الحضارة الغربية لم يعد ينتمى إلى عصرها الحديث<sup>(٢)</sup> .

ولهذا فلا يعدم الرأى القائل بأن تلك الثورة الأخيرة هى أكثر جذرية من الثورة التى قام بها عصر النهضة ضد القرون الوسيطة الأوربية , لا يعدم هذا الرأى أساسا يعتمد عليه . وعلى أى حال , فإن هناك أمنا على الأقل اتجاها جديدا يؤكد نفسه فى شتى مجالات الحياة , وتقوم الحروب التى تشتعل فى إطار الحضارة الغربية بدور الدافع لإسراع عملية التحلل فى جسم الغرب التى فتحت الباب أمام الأزمة . مثل هذا التحول العميق فى الحياة العقلية والروحية يقابل طبيعيا الحال تغيرات موازية فى الميدان الاجتماعى , أو أنه , جزئيا على الأقل , النتيجة الضرورية لهذه التغيرات الاجتماعية .

ويمكن رد هذه الأسباب إلى مجموعات ثلاث . **المجموعة الأولى** تحتوى على أزمة علم الطبيعة وعلى أزمة علم الرياضيات , وهو ما أدى , من ناحية , إلى تطوير عظيم فى الفكر التحليلي , ومن ناحية أخرى , إلى تهدم بعض المواقف العقلية النموذجية فى فكر القرن التاسع عشر الميلادى . **المجموعة الثانية** من الأسباب تضم ظهور منهجين جديدين للبحث , هما المنهج الرياضى المنطقى والمنهج الفينومينولوجى . أخيرا تتكون **المجموعة الثالثة** من عدد من تصورات العالم الجديد , أهمها التصور اللاعقلى والاتجاه الميتافيزيقى الواقعى الجديد .

وتترابط كل هذه الحركات الفكرية معا فى أغلب الأحيان . وهكذا , مثلا , فإن المنطق الرياضى على صلة وثيقة بأزمة علم الرياضيات , بينما تقوى أزمة علم الطبيعة من ساعد الاتجاه اللاعقلى , وأخيرا فإن نفس المفكرين هم الذين يؤسسون المنهج الفينومينولوجى والواقعية الميتافيزيقية الجديدة . كذلك , فإن رواد المنهج الفينومينولوجى ورواد المنطق الرياضى يتبادلون التأثير والتأثر فيما بينهم . ورغم هذه العلاقات المتبادلة , إلا أنه ينبغى أن نقول إن الظهور المتأنى (أى فى نفس الآن) لهذه الحركات كلها , وإن اختلفت فيما بينها من حيث الأزمة ظروفها التاريخية ومن حيث الغايات التى تسعى إليها , هذا الظهور المتأنى يشكل ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ الفكر الإنسانى . والحق أن هذه الحركات تؤدى إلى إحداث تحول كامل وشامل فى الفلسفة الغربية .

### ثانيا : أزمة علم الطبيعة النيوتونى :-

كان معظم فلاسفة الغرب فى القرن التاسع عشر الميلادى يعتقدون أن علم الطبيعة , كما انتهى إليه العالم الإنجليزى , الأشهر نيوتن , هو تصوير صادق مطلق للصدق للعالم , وأنه صورة واضحة للواقع , حيث ينتهى تحليل كل شىء إلى اندفاعات الذرات المادية والمواقف التى تنشأ عن ذلك (وهذا هو الاتجاه الميكانيكى) . وأساس ذلك هو أنه ينتج عن كون الموقف المعطى لنا فى الحاضر , واندفاعات الذرات , أمورا معروفة , ينتج أنه يصير فى وسع العلم أن يستنبط من ذلك , عن طريق الحساب , وحسب القوانين الميكانيكية , كل تطور سابق أو لاحق للعالم (وهذه هى نظرية الحتمية كما أخرجها العالم الفرنسى لابلاس) . وقد اعتقد المفكرون أن مبادئ علم الطبيعة , بل ونظرياتها كذلك , صادقة صدقا مطلقا (نظرية المطلق مطبقة على الحقيقة) .

وفى إطار علم الطبيعة النيوتونى , فإن أبسط المعطيات هى المادة , وكل شىء آخر ينبغى أن يكون ممكن الاختزال إلى هذا المعطى البسيط (وهذا هو المذهب المادى , أو المادية) . ومن جهة أخرى , فإن علم الطبيعة هو أقدم العلوم التى تدرس العالم , وقد وجد ما يؤكد أهميته فى تطور الفنون الميكانيكية<sup>(٣)</sup> , بينما لم تكن فروع أخرى من المعرفة , التى ستشهد نمواً وازدهارا خلال القرن التاسع عشر الميلادى , ومنها خاصة علم التاريخ , لم تكن قد ظهرت بعد ظهوراً بيئياً . وفى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين الميلاديين , أخذ بعض المفكرين فى التشكك فى قيمة هذا التصور الفيزيقى النيوتونى للعالم . وإذا كان صحيحا أنه ليس من الدقة أن نعتقد , كما قد يظن البعض , أن علم الطبيعة الجديد<sup>(٤)</sup> لم يعد يعرف شيئا اسمه المادة , أو أنه

(١) أى إلى ميادين الاجتماع والاقتصاد والفن والإنسان بعامه .

(٢) بسبب شدة الاختلافات ما بين المرحلتين

(٣) وهو ما يسمى بالتكنولوجيا .

(٤) يقصد ما بعد النظرية النسبية ونظرية الكوانتم ومبدأ الاحتمية (فى القرن العشرين الميلادى) .

يرفض مبدأ الحتمية في جملته. ولا يقبل أية قضايا على أنها يقينية يقينا مطلقا , إلى غير ذلك , إلا أنه من الحقيقي أن أمورا كثيرة كانت تبدو في أعين العلم مؤكدة تمام التأكيد أصبحت الآن قابلة للمناقشة.

وهكذا مثلا , فإنه ليس موضعا للشك الآن أن المادة ليست بسيطة , بل أنها على العكس شديدة التعقيد , وأن دراستها العلمية تشير قدرا عظيما من الصعوبات. كذلك فإنه يبدو الآن أنه من المستحيل أن نحدد على الدقة , في نفس الوقت , موقع واندفاع جزئى مادي ما , حتى أصبحت الحتمية كما ارتأها العالم لابلاس أمرا لا يمكن الدفاع عنه. هل أصبحت الحتمية إذن , بشكل عام, مبدءا ملقى في سلة المهملات؟ وهل يمكن أن تعيش من جديد تحت صورة مختلفة عن صورتها التقليدية؟ هذا هو السؤال الذى يضعه الآن كبار علماء الطبيعة. يقول العالم الإنجليزي الكبير آرثر دنجتون , وهو من علماء الطبيعة الفلكية : " أننى معارض للحتمية بقدر معارضتى للقضية التى تقول إن العالم مصنوع من سمن وعسل.... فهذان الفرضان معا لا أساس لهما من الصحة ". وحتى المذهب الميكانيكى نفسه , فإنه قد تطور وغير من سماته.

وفى هذا المجال يلاحظ وايتهد , الفيلسوف الإنجليزي وواحد من أفضل العارفين بهذه المشكلات , وعن حق , أن علم الطبيعة السابق كان يتصور العالم على أنه سهل كانت ترح فيه الخيول على حريتها , أما علم الطبيعة الجديد فإنه يراه على هيئة ميدان يمتلئ بالخطوط الحديدية وعليها عربات الترام التى تتبع اتجاهات محددة لها من قبل بدء حركتها , وأن المذهب الميكانيكى الجديد يقترب كثيرا من تصور عضوى للواقع. أخيرا , فإن ظهور نظرية النسبية ونظرية الكمات<sup>(١)</sup> , واكتشافات أخرى فى علم الطبيعة , كل هذا أدى إلى التشكك فى عدد من النتائج كان ينظر إليها من قبل على أنها صحيحة صحة مطلقة. هذه التحولات العميقة فى الفيزياء كان لها ردود مزدوجة فى الفلسفة.

فحيث إن علماء الفيزياء أنفسهم لم يعودوا يتفقون على صحة الاتجاه الميكانيكى والمذهب الحتمى ولا على مدى صوابهما , وحيث إنهم يحاولون أن يدرسوا , دراسة علمية , المادة التى تبدو معقدة من جديد , حتى أنهم أصبحوا مضطرين إلى إعلان نسبية نظرياتهم , فإنه ينتج عن كل ذلك أن الاتجاه الميكانيكى والمذهب الحتمى لا يعودان يعتمدان على سلطة العلم الطبيعى , وأن تفسير الوجود بالمادة يصبح أمرا مشكوكا فيه , ولا يمكن الاعتماد عليه.

### ثالثا: نقد العلم :-

لم يكن الموقف الذى وصفناه فى السطور السابقة نتيجة لتطور العلوم ذاتها وحسب , بل شارك عدد من المفكرين فى خلقه , وهما المفكرون الذين كانوا قد وضعوا تحت مجهر التحليل مناهج العلوم الطبيعية ووضعوا موضع التساؤل , وذلك من قبل انفجار أزمة علم الطبيعة النيوتونى. ويحتل الفلاسفة الفرنسيون فى اتجاه " نقد العلم " ذاك مكانا مرموقا , فهناك أميل بوترو ( ١٨٤٥ - ١٩٢١ م فى كتابه " فى احتمالية قوانين الطبيعة " ١٨٧٤ م ) , و " فى فكرة القانون الطبيعى " ١٨٩٤ م , وهناك بيير دوهم ( ١٨٦١ - ١٩١٦ م ) , وأول كتبه الهامة هو " المخلط والتركيب الكيميائى " ١٩٠٢ م , وهنرى بوانكاريه ( ١٨٥٣ - ١٩١٢ م , فى كتابه " العلم والافتراض " ١٩٠٢ م).

وفى نفس هذا الوقت تظهر كتابات اتجاه " نقد المذهب التجريبي " , الذى يبدأ من موقف وضعى وينتهى إلى نتائج أكثر تطرفا فى نقدها للعلم. ففي عام ١٨٨٨ - ١٩٩٠ م. نشر ريتشارد أفيناريوس ( ١٨٤٣ - ١٨٩٦ م ) كتابه " نقد التجربة الخالصة " , وفى عام ١٩٠٠ نشر أرنست ماخ ( ١٨٣٨ - ١٩١٦ م ) مؤلفه الرئيسى حيث يقوم فيه بنقد شديد التفصيل للقيمة المطلقة للعلم. ويتجه نقد العلم إلى الهجوم على قيمة الأفكار العلمية ونظريات العلم. وقد بينت التحليلات التفصيلية والبحوث التاريخية أن هذه الأفكار وتلك النظريات هى ذات طبيعة ذاتية فى قسم كبير منها. فالعالم لا يشرح الواقع بطريقة تعسفية وحسب , أى تدخل فيها اختياراته وتفضيلاته , بل إنه كذلك يقوم بعمله ابتداء من أفكار تخرج من ذهنه هو. أما عن النظريات العلمية الكبرى , فإنه , فى نظر اتجاه نقد العلم , لا تزيد فى حقيقتها عن أدوات ملائمة مريحة لتفسير التجربة , وكما يقول بوانكاريه فإن النظريات العلمية : " لا هى بالصحيحة ولا هى بالكاذبة , وإنما هى مفيدة وحسب " .

ومن الجدير بالملاحظة أن أى ناقد من نقاد العلم الفرنسيين , بمن فيهم بوانكاريه نفسه , لم يكن من أتباع المدرسة التى تقول بأن مصطلحات العلم ومفاهيمه ما هى إلا " اتفاقات "<sup>(٢)</sup> , وإنما الذى كانوا يقصدون إليه هو البرهنة على أن العلم أبعد ما يكون عن مثال العصمة من الخطأ الذى كان المفكرون والعلماء ينسبونه إلى العلم عادة فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى. ثم جاء المفكرون الألمان أصحاب اتجاه " نقد المذهب التجريبي " , ومشوا فى نفس الطريق وإلى أبعد مما ذهب إليه الفرنسيون , وقالوا بنوع من المذهب النسبى قريب من المذهب الشكى. وبصفة عامة , فإن العلم فقد قسما كبيرا من سلطته فى أعين الفلاسفة نتيجة لكل تلك الانتقادات , ثم جاءت الأزمة الداخلية فى علم الفيزياء لتزيد من سرعة عملية التحلل. وأصبح الموقف أنه لا يمكن بحال الاعتماد على مصادقية التصور النيوتونى للعالم , وكان هذا التصور هو الافتراض المسبق الأساسى للفلسفة الكانتية ولكل الفكر الأوروبى حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى.

ولكن أزمة علم الطبيعة أنتجت نتيجة أهم من ذلك بكثير. فقد أظهرت بوضوح أنه لا يمكن قبول مفاهيم وقضايا العلم الفيزيائى بدون تحليل فلسفى , وأنه لا يمكن , من وجهة نظر فلسفية , اعتبار النظريات ( Théorèmes ) الطبيعية صحيحة قبليا. وعلى

(١) أو "الكوانتم " , وأخرج النظرية ماكسر بلانك العالم الألمانى ( ١٨٥٨ - ١٩٤٧ م ).

(٢) أى أن العلم مجرد بناء عقلى ولا يدل بالضرورة على العالم الموضوعى. وهو ما يعنى التأكيد على العنصر الإنسانى والنسجى فى تكوين العلم.

هذا اتضح أن ديكارت وكانت أساء التصور على نحو يتسم بالسذاجة الشديدة. من جهة أخرى , وبفضل كل هذه الاكتشافات , فإن أزمة علم الطبيعة أيقظت الفكر التحليلي , الذى سيكون واحدا من علامات الفلسفة فى القرن العشرين الميلادى.

#### رابعاً: أزمة الرياضيات والمنطق الرياضى:-

وكحال علم الطبيعة , فإن علم الرياضيات قد انتهى هو الآخر إلى أزمة فى نهاية القرن التاسع عشر: وهى أزمة لن تكون أقل عمقا ولا أقل فى أهمية نتائجها من أزمة علم الفيزياء. وقد ظهرت اكتشافات عديدة فى علم الرياضيات فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى , ولكن أكثرها تأثيرا من الناحية الفلسفية كانت الاكتشافات الخاصة بالهندسة غير التقليدية ونظرية المجموعات (Theorie des ensembles) التى قام بها كانتور ( ١٨٤٥ - ١٩١٨ م) فقد أظهر هذان الاكتشافان أن ما كان يعد من قبل , وبغير تردد , مجرد افتراضات مسبقة لا يقوم علم الرياضيات إلا عليها , ما هو فى الواقع إلا قضايا ليست يقينية على الإطلاق , كما نيه هذان الاكتشافان الأنظار إلى ضرورة التحليل الدقيق للمفاهيم التى تبدو فى الظاهر بسيطة , وإلى تركيب النظم الرياضية ابتداء من المسلمات.

وفما يخص نظرية المجموعات , فقد اكتشف الرياضيون , عند انتهاء القرن التاسع عشر الميلادى , ما يسمى "بالمفارقات" (Paradoxes) , أى استنتاجات متناقضة , ابتداء من مسلمات بسيطة وواضحة فى الظاهر , رغم كون البراهين المستخدمة صحيحة. وهكذا انتهى الحال إلى تهافت أسس علم الرياضيات ذاته. وقد عاد المنطق الصورى إلى النهوض من جديد , تحت أسماء جديدة , منها المنطق الرمزي والمنطق الرياضى , فى ظل اتصال وثيق مع أزمة علم الرياضيات تلك.

وقد سبق أن ذكرنا أن الفلسفة الأوربية الحديثة أهملت المنطق الصورى إهمالا كبيرا , حتى لقد سقط فى زاوية النسيان المهين. فلم يكن بين كبار الفلاسفة فى الفكر الأوربي الحديث إلا واحد , هو ليبنتز , كان منطقياً مرموقاً , أما الآخرون فكانوا يجهلون أسس المنطق الصورى نفسه , وكفى على ذلك شاهدا حالة ديكارت وكانت. ثم ظهر فى عام ١٨٤٧ م كتابان , كل منهما مستقل عن الآخر , لرياضيين إنجليزيين هما مورجان ( ١٨٠٦ - ١٨٧٨ م) وجورج بول ( ١٨١٥ - ١٨٦٤ م) , ويعتبر هذان الكتابان أول ما نشر فى المنطق الرياضى الجديد. ثم استمر فى نفس الاتجاه أرنست شرودر ( ١٨٤١ - ١٩٠٢ م) وبيانو ( ١٨٥٨ - ١٩٣٢ م) وخاصة فريجة ( ١٨٤٨ - ١٩٢٥ م) وهو مفكر ومنطقي مرموق. ورغم ذلك فقد ظل المنطق الرياضى مجهولاً عند الفلاسفة على التقريب , حتى أوائل القرن العشرين الميلادى. فلم تأخذ الفلسفة الإنجليزية , على الأقل , فى الاهتمام بهذا النوع من البحوث إلا بعد ظهور كتاب برتراند رسل "أسس الرياضيات" فى عام ١٩٠٣ م , وذلك إثر مقابلته مع الرياضى بيانو عام ١٩٠٠ . ثم ظهر بعد ذلك فى ١٩١٠ - ١٩١٣ الكتاب الضخم الذى ألفه رسل مع وايتهد بعنوان "مبادئ الرياضيات" , وهو المؤلف الذى أسرع من خطى تطور هذا الفرع الجديد , أى المنطق الرياضى.

وقد أثر المنطق الرياضى تأثيراً مزدوجاً على الفلسفة. فمن ناحية , ظهر أنه أداة دقيقة جداً من أجل تحليل المفاهيم والبراهين , وأنه أداة يمكن تطبيقها , بحسب رأى أهلها هم أنفسهم , على مبادئ أخرى غير الرياضيات , لأن هذا المنطق "الرياضى" ليس رياضياً إلا من حيث منشئه , وأنه يتعامل فى الواقع مع مفاهيم غير رياضية وعامة تماماً. ومن ناحية أخرى , فقد أدى البحث المنطقي الرياضى إلى إلقاء الضوء من جديد على مشكلات عتيقة من مشكلات الفلسفة , مثل مشكلة الثالث المرفوع , ومشكلة , مدى وضوح البديهيات , ومشكلة النحو الفلسفى (أو ما يسمى اليوم السميوتيقا ( Semiotics) , وخاصة مشكلة الكليات<sup>(١)</sup>.

#### خامساً: المنهج الفينومينولوجى:-

الحركة الثانية التى ساهمت فى قطع الجسور مع اتجاهات القرن التاسع عشر الميلادى وفى بناء الفلسفة الحالية فى القرن العشرين هى اتجاه الفينومينولوجيا , الذى بدأ من قضايا فلسفية مغايرة تماماً للقضايا التى بدأ منها الاتجاه الناشئ عن أزمة العلوم الطبيعية والرياضية , والذى كان يهدف إلى أهداف مختلفة عن أهداف هذا الاتجاه الجديد. وإذا أردنا استخدام اصطلاح "الفينومينولوجيا" استخداماً صارماً فإنه لا ينطبق على الدقة إلا على منهج إدمند هُسرل , ولكن الباحثين يستخدمون هذا الاصطلاح للإشارة إلى مجموعة كبيرة من المفكرين الذين يمثلون اتجاهاً مماثلاً له. ومؤسس هذه الحركة هو الألماني فرانتز برنتانو ( ١٨٣٨ - ١٩١٧ م) , وكان قساً دومينيكانيا , ولكنه ترك الرهبنة ثم خرج على الكنيسة , وإن بقى متأثراً فى أكثر من ناحية بالفكر الأرسطى وبالفلسفة التوماوية (نسبة إلى توما الأكويني فيلسوف الكنيسة فى العصور الوسطى المسيحية) , وهو ما يظهر من اتجاهه الموضوعى , ومن إقباله على التحليلات الدقيقة وعلى البحوث المنطقية. وقد خلف تلامذة ثلاثة كان لهم تأثيرهم الكبير , وهم تفارْدُفسكى ومينونج وهسرل.

ورغم أن تفارْدُفسكى لم يكن منطقياً هو نفسه ( ١٨٦٦ - ١٩٣٨ م) , إلا أنه أصبح مؤسس المدرسة المنطقية البولندية , وهى التى ستساهم بنصيب واضح فى تطور المنطق الرياضى. أما مينونج ( ١٨٥٣ - ١٩٢١ م) فإنه قدم "نظرية الموضوع" , وأسس مدرسة , هى صغيرة ولكنها مؤثرة. وأهم تلامذة برنتانو هو إدمند هُسرل ( ١٨٥٩ - ١٩٣٨ م) الذى قام على إبداع المنهج الفينومينولوجى بالمعنى الدقيق. وهذا المنهج يقوم فى أساسه على تحليل جوهر المعطى أو الظاهرة , وقد أصبح ,

(١) البعض يقول إنه يوجد وجوداً نوعياً مستقلاً عن الإنسان (وهذا هو المذهب "الواقعى" فى إطار مشكلة الكليات) , والبعض الآخر يرى أنه مفهوم عقلى موضوعى ذو كيان خاص , ولكنه يوجد فى العقل (المذهب التصورى) , ويقول البعض الثالث إنه مجرد اسم (وهذا هو المذهب الاسمى).

وبعد الحرب الأوروبية الكبرى الأولى ( ١٩١٤ - ١٩١٨ ميلادية) على الأخص , المنهج الأكثر انتشارا مع منهج المنطق الرياضي.

والاختلاف الرئيسي بين الفينومينولوجيا والمنطق الرياضي يقوم في أن المنهج الفينومينولوجي لا يستخدم الاستنباط على الإطلاق ولا يهتم إلا قليلا باللغة (رغم اهتمام هسرل نفسه بها) , ولا يقوم بتحليل الوقائع التجريبية , بل بتحليل الماهيات. ومن المفيد أن نلاحظ أن كتاب مينونج الأساسي , وهو "حول الإثبات" , ظهر في ١٩٠٢ م. بينما كان كتاب هسرل "البحوث المنطقية" , وهو أحد أخصب الكتب التي ظهرت في النصف الأول للقرن العشرين الميلادي , قد ظهر في عام ١٩٠٠ م.

ويقترب إلى حد ما من المنهج الفينومينولوجي المنهج " التحليلي " عند الفيلسوف الإنجليزي جورج مور ( ١٨٧٣ )<sup>(١)</sup> , وهو الذي أصبح عند رسل التحليل الرياضي المنطقي . وهذا المنهج التحليلي يكتسى طابعا خاصا عند مور , الذي يقترب في كتابه "مبادئ الأخلاق" , الظاهر سنة ١٩٠٣ م , من منهج مينونج ويبدو متأثرا به إلى حد ما. بل إن تأثير مينونج ليظهر على أكثر من وجه عند رسل في كتابه " أسس الرياضيات " , كما أن تطور المنطق الرياضي , من بعد , سوف يتأثر بعدد من الأفكار الهامة عند هسرل.

### سادسا: الاتجاه اللاعقلي الحيوي :-

يشارك المنطق الرياضي مع الاتجاه الفينومينولوجي في أنهما معا مناهج وليسا مذاهب من حيث محتواهما , وأنهما ظهرا نتيجة للتفكير في أسس العلوم , وأنهما يبحثان في تأسيس تلك العلوم على أساس جديد عقلي. فهذان الاتجاهان , لهذا , يتسمان بالتعددية , وهما يتعارضان مع الميل إلى بناء نظم فلسفية. وقد شارك هذان الاتجاهان بتحليلاتهما في تعرية عدد من التبسيطات الساذجة التي سادت في القرن التاسع عشر وفي تحطيمها. كذلك فإن هذين الاتجاهين , على الأقل في بدايتهما , يأخذان جانب المذهب الواقعي<sup>(٢)</sup> , ونرى عند مور وعند هسرل تعاطفا مع الفلسفة الأفلاطونية , وهي ظاهرة جديدة تماما بالمقارنة مع التطورات السابقة. ومع ذلك , فلا المنطق الرياضي ولا الفينومينولوجيا , على الأقل في أصلهما , أي في "مبادئ" الرياضيات " لرسل ووايتهد" وفي "البحوث المنطقية" لهسرل , يعدان فلسفتين بالمعنى الصحيح , وإنما هما من المناهج.

ولكن هاهما حركتان فلسفتان جديدتان من حيث المضمون تظهرا في نفس لحظة ميلاد المنطق الرياضي والفينومينولوجيا : **الاتجاه الحيوي اللاعقلي والميتافيزيقا الواقعية.**

لقد كان من نتائج الأزمة العقلية والروحية لتلك الفترة أن اتسع رواج الاتجاهات اللاعقلية اتساعا عظيما , حتى أصبح ذلك من مميزات أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكان الفيلسوف الألماني كانت قد رفض القول بأن المعرفة العقلية يمكن لها أن تدرك عالما يقوم فيما وراء الظواهر , ومع ذلك فإنه يبقى على الأقل أن العالم التجريبي تحكمه قوانين عقلية وقابلة للحساب. ثم جاء اتجاه "نقد العلم" وأزمة علم الطبيعة ليبرهننا على أن الأمر ليس كذلك , وأن الشك الكانتي في قدرة العقل على المعرفة يمتد ليكون عاما في قدرته على معرفة أي شيء. وكان العقل مفهومهما على الطريقة الميكانيكية , وكما يظهر من ممارسة العلوم , يقوم في مقام العقل كله في خلال القرن التاسع عشر الميلادي , فجاءت أزمة العلم الميكانيكي لتؤدي بالضرورة إلى أزمة للمذهب العقلي كله.

ولكن هذا ليس وحده منبع الاتجاهات الجديدة. فمن المفارقات , أن الاتجاه التجريبي نفسه الذي كان سائدا , قد شارك هو نفسه بنصيب كبير في تطوير هذه الاتجاهات , من حيث إن تصوره الميكانيكي للكون كان قد نُقل إلى ميدان الحياة وظهر على هيئة نظرية دارون في التطور. فمن غرائب تطورات الفكر أن هذا المذهب , الذي يقول بأن كل كائن عال يأتي من كائن أدنى منه , نقل من تطبيقه على علم الحياة إلى علم النفس وإلى علم الاجتماع. ثم ظهر الاتجاه إلى إرجاع كل حياة الوعي , بما فيها العمليات العقلية , إلى عناصر أدنى منها , وإلى اعتبارها خاضعة لقوانين تطور الكائنات الحية : وكانت النتيجة أنه لم يعد من ثبات في شيء ولا سكون , ولا وجود لشيء اسمه المبادئ الخالدة , وإنما هناك وحسب الدفعة الحيوية التي تخدم تطور الحياة.

أخيرا , فإن نفس الأسباب التي رأيناها تدفع إلى ظهور المذهب الرومانتيكي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي , وإن كان التراث الذي تراكم خلال هذه الفترة قد حل محلها وقام مقامها , هذه الأسباب أدت فعلها في إظهار التيارات الجديدة : ذلك أن الصورة ذات الطابع الواحدى والحتمي التي قدمها العلم قبل عام ١٩٠٠ ميلادية عن العالم , كانت مثيرة للسخط إلى درجة أنها استتارت احتجاج عدد من المفكرين , الذين شعروا أن من واجبهم النهوض للدفاع عن حقوق الحياة والشخص الإنساني والقيم الروحية.

وقد ظهر هذا الاحتجاج بشكل غير متوقع وبالغ العنف عند فيلسوفين بوجه خاص , هما وليم جيمس الأمريكي وبرجسون الفرنسي , اللذين استقرا على رأس هذه الحركة الفلسفية. وكان هربرت اسبنسر , أعظم ممثلي الاتجاه التجريبي الميكانيكي ,

(١) توفي عام ١٩٥٨ .  
(٢) أي القول بوجود المعاني والكليات في ذاتها

لا يزال حيا حين ظهر في وقت واحد تقريبا كتاب برجسون "المعطيات المباشرة للشعور ١٨٨٩ م وكتاب جيمس "مبادئ علم النفس" (١٨٩٠م), وأعقبهما لكل منهما , على التوالي , " المادة والذاكرة " ( ١٨٩٦ م) و "إرادة الاعتقاد (١٨٩٧م).

وقد أثر هذان المفكران تأثيرا عظيما على الفكر الغربي خلال النصف الأول للقرن العشرين. ويكفي أن نلاحظ هنا أن كليهما يعلن اتجاهه اللاعقلي وأنهما يضعان فكرة الحياة في قلب تأملاتهما الفلسفية. ويفضلها أصبح الاتجاه اللاعقلي , الذي كان تيارا من الدرجة الثانية في خلال القرن التاسع عشر , قوة رئيسية بين قوى الفكر الغربي في النصف الأول من القرن العشرين.

### سابعا: نهضة الميتافيزيقا الواقعية:-

في موازاة مع حركة الاتجاه اللاعقلي تجمعت أسباب ظهور حركة أخرى عميقة : العودة إلى المذهب الواقعي وإلى الميتافيزيقا , وهو ما يؤدي إلى نسف إطار مبادئ الفلسفة الكانتية لأول مرة منذ كانت , وهي المبادئ التي كانت تحكم الفلسفة كلها خلال القرن التاسع عشر الميلادي. ومن الصعب اكتشاف أسباب هذه الحركة الجديدة وعللها العميقة. ولا شك في تعدد أسس الميتافيزيقا الجديدة وتنوعها.

و يمكن أن نقول بصفة عامة إن موارد الفلسفة الكانتية بدأت في النضوب حوالي عام ١٩٠٠ م. فلا هي تكفي ولا هي ترضى أحدا , والفكر يبحث عن حلول جديدة. ويظهر في المحل الأول تيار يأخذ وجهة الواقعية النقدية , وهو تيار لا يغادر الإطار الكانتي , ويعبر عنه الألماني ريل ( ١٨٤٤ - ١٩٢٤ م) مثلا بعد ذلك سارت مدرسة جامعة فورتنزبوج الألمانية , والتي أسسها أوزفالد كولبه ( ١٨٦٢ - ١٩١٥ م) في نفس هذا الاتجاه , وتذهب به إلى مدى أبعد وبقوة , وقد تبع كولبه في هذه المدرسة مفكرون لامعون.

ولكن حركة تجديد المذهب الواقعي الحقيقية إنما هي من إنتاج برنتانو وتلامذته , وعلى الأخص مينونج وهسرل , وهؤلاء جميعا هم أيضا وراء ظهور المنهج الفينومينولوجي. صحيح أن هسرل نفسه لم يدفع بتأملاته إلى حد المذهب الواقعي (١) , ولا حتى إلى فلسفة الوجود , ولكن الصحيح أيضا أن صرفه انتباه المفكرين عن المشكلات العقيمة التي انتهت إليها بحوث نظرية المعرفة في عصره , وتحويله إلى تحليل المعطيات العقلية , كان ذا أهمية عظمى من أجل ظهور الاتجاه الواقعي الجديد والعودة إلى الميتافيزيقا.

وكان تأثير مينونج هاما هو الآخر في نفس هذا الاتجاه. وخارج هذه المنطقة الفكرية , اكتسبت الميتافيزيقا الواقعية أرضا جديدة في مواقع أخرى تحت تأثير عناصر روحية متنوعة. فالفلسفة التوماوية تعود إلى الظهور حوالي عام ١٨٨٠ م. (مع خطاب البابا عام ١٨٧٩ م. الذي يبدأ ب "الأب الخالد" ) , وتؤسس مدرسة كبيرة سوف تصير من بعد من أقوى المدارس: ففي عام ١٨٩٣ م. تؤسس " المجلة التوماوية" في مدينة فريبورج الألمانية, كما تظهر عام ١٨٩٤ م , "مجلة المدرسية الجديدة للفلسفة" , في مدينة لوفان ببلجيكا. ويقول المذهب التوماوي الجديد بالواقعية المباشرة ويدعو إلى الميتافيزيقا التقليدية. وهو ليس وحده في هذا الميدان , ففي إنجلترا يخرج جورج مور مقالته الشهيرة " تنفيذ المثالية" , ويعلن بالاتفاق مع رسل فلسفة قريبة من المذهب الأفلاطوني. وفي فرنسا يقف أميل بوترو ويرجسون في صف المذهب الواقعي , ولكن لأسباب مختلفة. وفي ألمانيا يثير مذهب هانز درينتش ( ١٨٦٧ - ١٩٤١ م) , الذي يحتفظ بطابع أرسطي واضح , يثير الاهتمام عند المفكرين.

وإذا لم يكن هذا التيار الواقعي الجديد قد نال شعبية التيار اللاعقلي وانتشاره بين جماهير عريضة, إلا أنه أصبح فعلا مع ذلك , فيه تصبح الميتافيزيقا , التي كانت حركة ثانوية وغير متميزة في القرن التاسع عشر الميلادي , تصبح أحد المذاهب الرئيسية في القرن العشرين الميلادي.

### ثامنا: عودة إلى التأملات الفلسفية: النزعة التعددية :-

كانت الفلسفة في نهاية القرن التاسع عشر , وتحت النفوذ الساحق للاتجاه الوضعي , فلسفة هادئة ووقورة للغاية. وربما كان معظم الفلاسفة يخشون من أن يتهمهم أحد بالتفرد أو برأى غريب , وكانت النتيجة أن معظم الجامعات ما كانت تدرس إلا مجرد تعداد مذاهب العصور السابقة.

فلما كانت بداية القرن العشرين , أصبح من أهم ملامحها العودة إلى التأملات الفلسفية المطردة والانتظامية , وهو ما يظهر سواء عند الاتجاه اللاعقلي أو عند الميتافيزيقيين. ولكن السمة الأعمق والأكثر تميزا هي من غير شك العودة إلى الاتجاه التعددي الشخصاني (أي الذي يهتم بالشخص الإنساني).

فإذا كان القرن التاسع عشر واحديا في سائر مظاهر إنتاجه على التقريب , فإن كل حركات نهايته هي , على الضد تماما , تعددية , أي أنها تعترف بتنوع درجات الوجود وبأن هناك كثرة من الموجودات المستقلة. ويجد مذهب التعددية أقصى تعبير

(١) مذهب فلسفي حديث، مقابل المثالية، بأن الأشياء المادية موجودة بشكل مستقل عن وجودها المتصور. <http://www.thefreedictionary.com/realism>

عنه عند وليم جيمس , الذى يذهب إلى حد إظهار التعاطف مع مذهب تعدد الآلهة , كما يظهر المذهب أيضا عند الفلاسفة الفينومينولوجيين وعند الواقعيين الجدد الإنجليز وعند أتباع القديس توما الأكويني.

وتعود إلى الشخص الإنسانى حقوقه القديمة ويصبح محور الاهتمام الفلسفى أكثر وأكثر. ثم تأخذ مشكلات العقل الكبرى فى استنارة الفكر استنارة حقيقية. فإذا كان القرن التاسع عشر عصرا واحديا وماديا , فإن أزمة عام ١٩٠٠ م. تعلن السيادة الواضحة للاتجاه نحو مذهب شخصانى روحى.

ومع ذلك فإن هذه الأفكار كانت لا تزال , حوالى عام ١٩٠٠ م. أبعد ما تكون عن أن تجد قبولا عاما لها. بل أن الربع الأول من القرن العشرين الميلادى يشهد العودة , العارضة , للاتجاهات القديمة , ولكن هاهى الأفكار الجديدة قائمة وتعرض مذاهبها , وسوف تسبطر على المسرح الفلسفى بعد الحرب الأوربية الكبرى الأولى عند معظم المفكرين الأوربيين.<sup>(١)</sup>

(١) تأليف : إ.م. بوشنسكى , ترجمة : د. عزت قرنى , الفلسفة المعاصرة فى أوروبا , سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – الكويت , صدرت السلسلة فى يناير ١٩٧٨ بإشراف أحمد مشارى العدوانى ١٩٢٣ – ١٩٩٠ , ص ٢٣،٤٥

## الشخصية

الشخصية Personality هي مجموعة مستقرة من الاتجاهات (الميول) والخصائص التي تحدد تلك القواسم المشتركة والاختلافات في السلوك النفسي للناس (الأفكار، الشعور، والأعمال) التي لها استمرارية في الزمان والتي قد لا تكون سهلة الفهم كنتيجة وحيدة للضغوط الاجتماعية والبيولوجية للحظة.

الميول Tendencias هي العمليات التي تحدد الاتجاهية في الأفكار والشعور، والتصرفات التي تخدم الأهداف أو الوظائف.

الخصائص Characteristics هي هياكل ثابتة للشخصية تستخدم لشرح الأهداف أو المتطلبات بدلا من الاتجاه نحوهم. كما أنها تستخدم لشرح الأفكار والمشاعر، والتصرفات التي تبدو أقل اتجاهية عنها متكررة في الطبيعة. مثال عن الميل قد يكون محاولة لتحقيق الكمال في الحياة في حين الخصائص ستكون ذات الصلة بالمثل العليا، مثل الجمال أو الكرم، التي هي تعريف الكمال.<sup>(١)</sup>

### موضع الشخصية في تاريخ علم النفس:-

ظهر علم النفس كعلم مستقل وتجريبي بشكل أساسي من مزيج الأفكار من الفلسفة وعلم النفس. استغرق ميلاد النظام أكثر من قرن من الزمان في ألمانيا وكان إلى حد كبير عمل فيلهلم فوننت Wilhelm Wundt، الذي أسس أول مختبر لعلم النفس في عام ١٨٧٩ في جامعة لايبزيغ.

### دراسة الوعي Consciousness :

هذا العلم الجديد علم النفس تركز على تحليل التجربة الواعية إلى عناصر، والمنهجية صيغت على نهج مأخوذ من العلوم الطبيعية، يبدو أن الفيزياء والكيمياء فتحت أسرار الكون المادي عن طريق اختزال جميع المسائل إلى عناصرها الأساسية وتحليلها.

اهتم فوننت وعلماء نفس آخرين في عصره بدراسة الطبيعة البشرية و كانوا متأثرين بمنهج العلوم الطبيعية، فشرعوا في تطبيقه لدراسة العقل، لأن هؤلاء الباحثين حددوا أنفسهم بالمنهج التجريبي، درسوا فقط تلك العمليات العقلية التي يمكن أن تتأثر ببعض المحفزات الخارجية التي يمكن أن يكون متلاعب بها ومسيطر عليها من قبل المختبر. ليس هناك مجال في هذا المنهج علم النفس التجريبي لمثل هذا الموضوع المعقد، متعدد الأبعاد كالشخصية، حيث لم يكن متوافقاً مع كل من مادة الموضوع أو أساليب علم النفس الجديد.

### دراسة السلوك Behavior:

السلوكية Behaviorism هي مدرسة لعلم النفس، أسسها جون ب. واتسون John B. Watson، ركزت على علم النفس ودراسة السلوك العنفي بدلا من العمليات العقلية. المدرسة السلوكية الآلية قدمت صورة للبشر كآلات منظمة تستجيب للمؤثرات الخارجية تلقائياً. وهكذا، فإن علماء السلوك أختزلوا الشخصية إلى ما يمكن أن ينظر إليه ويلاحظ بموضوعية، وبالتالي لم يكن هناك في تصورهم الوعي أوقوى اللاوعي.

### دراسة اللاوعي Unconscious:

طريقة التحليل النفسي Psychoanalysis هي نظرية لسيجموند فرويد Sigmund Freud للشخصية ونظام معالجة لعلاج الاضطرابات النفسية. مستوحى من نهج التحليل النفسي لفرويد، ومجموعة من المنظرين طوروا مفاهيم فريدة عن الطبيعة البشرية خارج التيار الرئيسي لعلم النفس التجريبي. هؤلاء المنظرون، والمحللون النفسيون الجدد ركزوا على الشخصية ككل أدها أو أدها في العالم الحقيقي، ليس على عناصر من السلوك أو وحدات الحافز- ورد الفعل كما درس في مختبر علم النفس.

### الدراسة العلمية للشخصية :

بدأ علم النفس التجريبي والدراسة الرسمية للشخصية في اثنين من التقاليد منفصلة، مستخدمين أساليب مختلفة ومتبعين أهداف مختلفة، ينبغي أن نلاحظ أن علم النفس التجريبي في سنواته التكوينية لم يتجاهل تماما الشخصية - تمت دراسة بعض الجوانب المحدودة من الشخصية - ولكن لم تكن هناك موجودة ضمن علم النفس كمنطقة متميزة تعرف باسم الشخصية مثلما كان هناك علم نفس الطفل أو علم النفس الاجتماعي.

(١)

لم تكن حتى أواخر عام ١٩٣٠ حيث أصبحت دراسة الشخصية رسمية ومنهجية في علم النفس الأمريكي، كما في المقام الأول من خلال عمل هنري موري Henry Murray وجوردون ألپورت Gordon Allport في جامعة هارفارد. أشارت هذه النشاطات اعترافاً متزايداً بأنه من الممكن ادماج بعض المناطق المعنية للمحللين النفسيين ومحلى النفس الجدد في علم النفس، وبذلك وصل علماء النفس الأكاديميون وصلوا إلى الاعتقاد بأنه من الممكن تطوير الدراسة العلمية للشخصية.

### تعريف الشخصية :

يمكننا أن ننظر إلى مصدرها، فالشخصية *personality* مشتقة من كلمة لاتينية *persona*، والتي تشير إلى القناع الذي يستخدمه الممثل في المسرحية، فمن السهل أن نرى كيف أن الشخصية جاءت لتشير إلى المظهر الخارجي، والوجه العام الذي نظهره للناس من حولنا.

على أساس الاشتقاق، ومن ثم قد نستنتج أن الشخصية تشير إلى الخصائص الخارجية والمرئية لدينا، تلك الجوانب منا التي يمكن للآخرين أن يروها، عندئذ يمكن تعريف شخصيتنا من حيث الانطباعات التي نصنعها عند الآخرين، وهذا هو ما نبدو نحن عليه، هناك تعريف واحد للشخصية في القاموس المقياسي، وينص على أن الشخصية هي الجانب المرئي من الشخص كما يؤثر على الآخرين.

عندما نتحدث عن الشخصية، فنحن نشير إلى أكثر من ذلك، فنحن نعني بأن تشمل العديد من سمات الفرد، وهي كلية أو مجموعة من الخصائص المختلفة التي تتجاوز الصفات البدنية السطحية. فالكلمة تشمل مجموعة من الصفات الشخصية الاجتماعية والعاطفية أيضاً، تلك التي من الممكن أن نكون غير قادرين على رؤيتها مباشرة، على أن الشخص قد يحاول إخفاءها عنا، أو أننا قد نحاول الاختباء من الآخرين.

في استخدامنا لكلمة الشخصية، نشير إلى الخصائص الدائمة، فنحن نفترض بأن الشخصية ثابتة نسبياً ويمكن التنبؤ بها، لكن الشخصية ليست جامدة وثابتة ولكن يمكن أن تختلف حسب الموقف، فمعظم علماء نفس الشخصية حلوا المشكلة عن طريق قبول نهج التفاعليين<sup>(١)</sup>، متفقين على أن الصفات الشخصية دائمة، والجوانب المتغيرة للموقف، والتفاعل بينهم يجب جميعها أن تنظر في منظومة من أجل تقديم شرح كامل لطبيعة الإنسان.<sup>(٢)</sup>

### الشخصية من المنظور :

ما نقدمه هنا هو استعراض سريع، وخالصة، وتركيب من العوامل الرئيسية التي تشكل وتصيغ شخصياتنا.

- العامل الوراثي The genetic factor .
- العامل البيئي The environmental factor .
- عامل التعلم The learning factor .
- عامل الوالدين The parental factor .
- العامل التطوري The developmental factor .
- عامل الوعي The consciousness factor .
- عامل اللاوعي The unconscious factor .

### العامل الوراثي :

هناك أدلة قوية على أن بعض سمات الشخصية أو أبعادها موروثية. وهذه تشمل أبعاد إيسنك Eysenck للاضطراب العقلي، والمرض العصبي، والانبساط (وهذه الأخيرة مشتقة من عمل يونج)؛ والعوامل الخمسة لمكري McCrae وكوستا Costa (المرض العصبي) العصابية، والانبساط، والانفتاح على التجربة، والقبول، والاجتهاد، والأمزجة الثلاثة ليس Buss وبلمن Plomin من العاطفية، والنشاط، والاختلاطية الاجتماعية. وبالإضافة إلى ذلك سمة زتشرمن Zucherman من البحث عن الإثارة (Sensation seeking)<sup>(٣)</sup> في المقام الأول تتأثر بالعوامل الوراثية، وبالتالي يمكننا أن نرى أن نهج السمات بدأ منذ أكثر من نصف قرن، ولا يزال حيويًا. ففي الواقع، هذا المجال هو الأسرع نمواً في بحوث الشخصية وكثير من الباحثين يعتبرها بأنها الأكثر أهمية لفهمنا للشخصية.

(١) فلسفة المذهب الثنائي الذي يحتوي على أن العقل والجسم يكون لهما تأثير سببي على بعضها البعض. كما هو الحال عند وخز إصبع شخص (مادى) بسبب ألم (عقلى)، أو ذاكرة محرجة (عقلى) تؤدي إلى أحمراروجه المرء (مادى) <http://www.thefreedictionary.com/interactionism>

(٢) Duane Schultz , Sydney Ellen Schultz , Theories of Personality , Brooks / Cole publishing company , 1998 , ITP , an international thoson publishing company , p 6, 10

(٣) البحث عن الإثارة هي سمة للشخصية يحددها البحث عن الخبرات والمشاعر، والتي هي "متنوعة، وجديدة، ومعقدة ومكثفة"، والاستعداد "لتحمل المخاطر المادية والاجتماعية والقانونية والمالية من أجل مثل هذه التجارب." [http://en.wikipedia.org/wiki/Sensation\\_seeking](http://en.wikipedia.org/wiki/Sensation_seeking)

ما يبقى تعيينه هو تحديد كم عدد العوامل الموروثة بالضبط؟ والصفات أو الأمزجة - عند كاتل Cattell ١٦، و إيسنك Eysenck ٣، و لمكري McCrae وكوستا Costa ٥، بس Buss وبلمن Plomin ٣، أو بعض اعداد حتى الآن غير مكتشفة؟ فالبحوث المستقبلية في مجال علم الوراثة السلوك قد تسفر عن جوانب إضافية من السمات التي تتشكل بفعل عوامل موروثة. فما نرثه هي ميول، وليست مصائر؛ نزعات، وليست ثوابت.

### العامل البيئي:

كل واضع نظريات الشخصية أقروا بتأثر الشخصية بينتنا الاجتماعية، وبالنظر في بعض الأمثلة.

اولدر Alder تكلم على أهمية ترتيب الولادة، بحجة أن شخصيتنا تتأثر بموضعنا في الأسرة نسبة إلى اشقائنا، وأشار إلى كيفية أن البيئة الاجتماعية التي نتعرض إليها تختلف كدور ترتيب الولادة ومدى فارق السن بين الأشقاء، أو إذا لم يكن لدينا أشقاء على الإطلاق. وفي رأي أدلر أن هذه البيئات المنزلية المختلفة يمكن أن تؤدي إلى شخصيات مختلفة.

هورني Horney اعتقدت أن الثقافة والفترة الزمنية التي يتم فيها تربيتنا يمكن أن تنتج شخصيات مختلفة، كما رأت في الإضطرابات العصبية المختلفة التي ظهرت عند المرضى الألمان والأمريكان. وأشارت هورني أيضا إلى البيئات الاجتماعية المختلفة إلى حد كبير التي يتعرض إليها الفتيان والفتيات كأطفال، وتحدثت عن شعور النساء الأقل شأنًا نتيجة الطريقة التي يتم التعامل معهن في ثقافة يهيمن عليها الذكور، أما النساء التي تربين في ثقافة الأم الحاكمة يشعرن على نحو أفضل بأنفسهم ولهن خصائص شخصية مختلفة.

أما فروم Fromm فأعتقد أن الناس تتأثر على نحو أكبر بالقوى التاريخية والأحداث، فضلا عن ذلك نوع المجتمع المبني. فكل فترة من التاريخ كما قال - مثل العصور الوسطى، وعصر النهضة، والإصلاح البروتستانتي، والثورة الصناعية - ساعدت في تشكيل شخصية مختلفة أو أنواع شخصيات، مناسبة لاحتياجات العصر التاريخي.

حتى ألبورت Allport وكاتل Cattell الذين افتتحا نهج السمة على دراسة الشخصية اتفقا على أهمية العامل البيئي. وأشار ألبورت أنه على الرغم من أن علم الوراثة هو المادة الخام الأساسية لشخصيتنا، فهناك البيئة الاجتماعية التي تشكل المادة الخام إلى المنتج النهائي. كاتل جادل بأن الوراثة هي الأكثر أهمية بالنسبة لبعض العوامل الشخصية، ولكن البيئة هي الأكثر أهمية مع الآخرين، واعترف بأن العوامل البيئية تؤثر في نهاية المطاف على كل جانب.

وأشار إريكسون Erikson إلى أن مراحل الثمانية للتطور النفسي والاجتماعي هي فطرية، ولكن البيئة تحدد الطرق التي تتحقق بها تلك المراحل المحددة وراثياً، كما أعرب عن اعتقاده بأن القوى الاجتماعية والتاريخية تؤثر في تشكيل هوية الأنا وبالتالي الشخصية. كما أن ماسلو Maslow وروجرز Rogers أكدوا أن تحقيق الذات فطري ولكنهم أقر بأن العوامل البيئية يمكن أن تمنع أو تعزز نمو الحاجة بتحقيق الذات.

فالأحداث الاجتماعية واسعة النطاق مثل الحروب والركود الاقتصادي يمكن أن تقيد خيارات حياتنا وتؤثر في تشكيل هويتنا، فأكثر تغييرات الحياة العادية - مثل أن تصبحوا آباء، الطلاق، أو تغيير الوظائف - يمكن أن يؤثر أيضا على الشخصية، على سبيل المثال، بعض النساء اللاتي لديهن أطفال يصبحن أقل قبولا للذات واجتماعية من النساء اللاتي ليس لديهن أطفال، وبعض النساء المطلقات يظهرن كنتاج ازدياد في تطوير الأنا لا تظهر في العينة المقارنة من النساء اللاتي لا يزلن متزوجات، والأشخاص الذين يعملون في وظائف أكثر تعقيدا وتطلبا يبدون قدرا أكبر من الثقة بالنفس ومشاعر التحكم من أولئك الذين يعملون في وظائف أقل تطلبا (هلسن Helson وستيوارت Stewart ، ١٩٩٤).

وأخيرا خلفتنا العرقية - سواء كنا جزء من ثقافة الأقلية أو الأغلبية- تؤثر على شخصيتنا. فنحن نرى أمثلة على الاختلافات العرقية في متغيرات مثل البحث عن الأثارة، ومركز السيطرة، ومجالات النجاح التي يمكن أن تلبى الحاجة للإنجاز. ونعلم أيضا أن أعضاء جماعات الأقليات قد يضطرون إلى تطوير الهوية العرقية وكذلك هوية الأنا، ويتكيفون مع كلا الثقافات التي ينتمون إليها، فالدلائل تشير إلى أن أولئك القادرين على التكيف قادرون على الحصول على شعور بالكفاءة داخل كلا الثقافتين دون تقييد أنفسهم بهوية عرقية واحدة، فهم أكثر عرضة لصحة نفسية أفضل من أولئك الذين ليسوا قادرين على التكيف (لافرامبوز LaFramboise ، كولمان Coleman وجرتن Gerton ، ١٩٩٣).

وبالتالي فإنه من المستحيل أن ننكر التأثير الكبير للقوى البيئية والاجتماعية المتنوعة بما تمارسه على الشخصية، والطريقة الرئيسية التي تمارس تأثيرها تتم من خلال التعلم (١).

(١) مرجع سابق ص ٤٧٠ ، ٤٧١

## عامل التعلم:

وهناك أدلة قاطعة بأن التعلم يلعب دورا رئيسيا فى التأثير فعليا على كل جانب من جوانب سلوكنا، فجميع القوى الاجتماعية والبيئية التى تشكل الشخصية تقوم بذلك عن طريق تقنيات التعلم. حتى الجوانب الموروثة للشخصية فى المقام الأول يمكن تعديلها، تعطيلها، منعها من التطور، أو السماح لها لتزدهر، من خلال عملية التعلم.

سكينر Skinner (على أساس العمل السابق لواتسون Watson وبافلوف Pavlov) علمنا أن قيمة التعزيز الإيجابى، والاقتراب المتعاقب، والسلوك الخرافى، والمتغيرات التعليمية الأخرى فى التأثير على ما يدعوه الآخرون بالشخصية، ولكنه يصفه ببساطة على أنه تراكم لردود فعل متعلمة.

عرض باندورا Bandura مفهوم التعلم بالملاحظة، وهى فكرة أننا نتعلم من مشاهدة الآخرين (نماذج)، من خلال التعزيز الغير مباشر. و روتر Rotter عرض نهجا للشخصية الذى فيه التعزيز هو المحدد الرئيسى، وناقش بأن دافعنا الرئيسى هو تعظيم التعزيز الإيجابى. واتفق باندورا ووتر مع سكينر بأن معظم السلوكيات تعلم وأن العامل الوراثى يلعب دورا ثانويا فقط.

فحاجة ماكلياند McClelland للإنجاز، بالإضافة إلى ذلك المفاهيم الموثقة جيدا عن الكفاءة الذاتية (باندورا)، ومركز السيطرة (رتر)، وتعلم العجز (سليجمان Seligman) تتأثر بالتعلم.

يبدو أن هذه المفاهيم تكون متصلة بمفهوم أوسع على نحو متزايد بحيث تدرك بأنها من الأهمية لدراسة الشخصية، وهذه المسألة هى التحكم. فالناس التى تعتقد أن لديهم السيطرة على حياتهم على نحو عالٍ فى الكفاءة الذاتية ولديهم مركز السيطرة الداخلى، ولا يتميزون بالعجز المكتسب (الذى ينطوى على عدم وجود السيطرة). فمن حيث تعبير سليجمان، الناس الذين يعتقدون أنهم مسيطرون متفائلون بدلا من كونهم متشاؤمين.

السيطرة مفيدة للغاية فعليا فى كل جانب من جوانب الحياة وتمثل واحدة من أكثر التطورات إثارة فى السنوات الأخيرة. فالدرجة العالية من السيطرة ارتبطت بوجود العديد من العوامل شاملة آليات التعامل الأفضل، وأثارا أقل للتوتر، وزيادة الصحة النفسية والجسدية والمثابرة وطموحات أكبر واحترام الذات، وانخفاض القلق، و درجات أعلى للصحة العقلية والبدنية، والمثابرة ودرجات أعلى، وزيادة المهارات الاجتماعية والشعبية.

فالتحكم (السيطرة) أيا كانت تسمى - بالكفاءة الذاتية، المركز الداخلى للسيطرة، أو التفاؤل - يبدو أنه محدد بالعوامل الاجتماعية والبيئية، وهو يعلم فى مرحلة الرضاعة والطفولة، على الرغم من أنه يمكن أن يتغير فى وقت لاحق من الحياة.

## عامل الوالدين:

على الرغم من أن فرويد كان واضع النظرية الأول الذى أكد على الدور الرئيسى لتأثيرات الوالدين فى تشكيل الشخصية، كل منظر للشخصية عمليا جاء ليردد وجهات نظره. ريكول أدلر Recall Adler ركز بشأن العواقب الناتجة بالنسبة للطفل الذى يشعر بأنه غير مرغوب فيه أو مرفوض من والده أو والدته، فمثل هذا الرفض من الوالدين يؤدي إلى عدم وجود الحب والأمان، الأمر الذى يترك الشخص شعور بأنه لا قيمة له، وبالغضب، والافتقار إلى الثقة بالنفس.

فقد كتبت هورنى Horney (استنادا إلى تجربتها الشخصية) حول كيفية أن عدم وجود دفء الوالدين والعطف يمكن أن يضعف أمن الطفل ويؤدي إلى شعوره بالعجز. كما ناقش فروم Fromm بأنه كلما أصبح الطفل أكثر استقلالية من الروابط الأساسية مع والدته أو والده، يصبح الطفل غير آمن أكثر.

كما أن ألبورت Allport وكاتل Cattell الذين استند عملهما إلى أهمية السمات أيضا أدركوا تأثير عامل الأبوين. فقد اعتبر ألبورت علاقة الرضيع مع الأم بأنها المصدر الرئيسى للعاطفة والأمن، ومن الشروط الحاسمة لنمو الشخصية فيما بعد. رأى كاتل الفترات الأولى من الطفولة باعتبارها الفترة التكوينية الكبرى، فمع سلوك كلا الوالدين والأشقاء على حد سواء يتشكل شعور الطفل بالأمان.

واحتفظ إريكسون Erikson على علاقة الطفل مع الأم فى السنة الأولى من الحياة بالأمر الحيوى فى تشكيل موقف الثقة تجاه العالم. وعلق ماسلو Maslow على مدى أهمية تلبية الآباء والأمهات احتياجات طفلهم الفسيولوجية والأمنية فى العامين الأولين من الحياة كشرط مسبق لظهور الاحتياجات العليا. وتكلم روجرز Rogers على ضرورة تزويد الآباء باهتمام إيجابى غير مشروط لأبنائهم.

أيضا شهدنا أمثلة لكيفية إمكان تأثير السلوكيات الأبوية حتى إنها تقرر جوانب محددة للشخصية، مثل الحاجة إلى الإنجاز، الكفاءة الذاتية، مركز السيطرة، وتعلم العجز أو التفاؤل، فسلوك الوالدين يمكن أن يؤثر على السمة الموروثة فى الأصل مثل البحث عن الإثارة. هذا يتطلب القليل من الخيال لتحقيقه، على سبيل المثال الطرق القاسية والعقابية التى يمكن أن يخنق الآباء بها الصفات الموروثة مثل الانبساط، الاختلاط الاجتماعى، القبول، والانفتاح على التجربة.

ومن الاستعراض على الأبحاث حول العلاقة بين خبرات الطفولة المبكرة وعلم نفس المرضى للكبار اتضح باستمرار أن طفولة البالغين من المكتئبين والقلقين تميزت بالتربية غير الملائمة، ووجدوا الوالدين أكثر رفضاً وإساءة، وأقل رعاية ومحبة، من الوالدين البالغين الأقل تعثراً (بروين Brewin ، أندروز Andrews ، وجوتليب Gotlib، ١٩٩٣).

فجد بوضوح التكنات التي تشبه ترتيبات النوم (مثل ما يجرى في المخيم أو المدرسة الداخلية) في مرحلة الطفولة المبكرة أدت إلى شخصية أكثر قلقاً، مقيدة، ومسوحة عاطفياً. البالغون الذين قضوا طفولتهم في مثل هذا النسق فقد فشلوا في توثيق علاقة مع القائمين على رعايتهم وأبدوا قدرات متضائلة في إقامة صداقة، وانخفاض في القوة العاطفية في العلاقات الشخصية، والميل إلى الانطواء (افيزر Aviezer، فان ايدزندورن van Ijzendoorn، ساجي sagi، و سكوجال Schuegal، ١٩٩٤).

وبالتالي فإن كل من لديه المسؤولية الرئيسية في تربية الأطفال- سواء ولادة أو الآباء بالتبني أو بديل الوالدين- فهم في وضع يمكنهم من التأثير على شخصية الطفل.

### العامل التطوري:

اعتقد فرويد أن كل شيء عن الشخصية الإنسانية جامد ويتشكل بالكامل عند سن ٥ سنوات، وأنه من الصعب أن يتغير بعد ذلك. ونحن نعلم أن سنوات الطفولة مصيرية بوضوح في تشكيل الشخصية، ولكن أيضاً من الواضح أن الشخصية تتواصل في التطوير فيما بعد الطفولة - ربما طوال فترة الحياة بأكملها.

فمنظروا الشخصية الآخرون - مثل كاتل Cattell ، البورت Allport ، إريكسون Erikson ، وموري Murray - رأوا أيضاً الطفولة لها أهميتها في تشكيل الشخصية، لكنهم اتفقوا على أنها تتطور ويمكن أن تعدل بعد سنوات الطفولة. وبعض المنظرين أشاروا إلى نمو الشخصية في مرحلة المراهقة. يونج Jung ، ماسلو Maslow ، إريكسون Erikson ، وكاتل Cattell ركزوا على منتصف العمر كفترة رئيسية للتغيير في الشخصية، المشكلة الأساسية هنا هي فقط إلى متى الشخصية تستمر في التغيير والنمو، ليست شخصيتك في سن ٢٠ أو ٣٠ تشير إلى ما سوف تكون عليه عند سن ٤٠ أو ٦٠؟ كما هو الحال مع معظم الأسئلة المتعلقة بالشخصية، تحولت إلى أن تكون معقدة للغاية.

يبدو أن أساس الشخصية الأساسي للنزعات الدائمة (مثل السمات التي وصفها مكري McCrae و النماذج الخمسة لكوستا) تبقى هي نفسها على الأقل على مدى فترة من سنوات عديدة. وفقاً لمعظم الأدلة المتاحة حتى الآن هذه السمات والقدرات الأساسية يبدو أنها تكون مستقرة من العمر ٣٠ لفيما بعد. ما يمكن أن يتغير هي الطريقة التي نختارها لإظهار هذه الخصائص.

لذا ما الذي يسبب تغيرات في الشخصية أو التطور في مرحلة البلوغ؟ يكمن الجواب في طبيعة العوامل الاجتماعية والبيئية التي تمت مناقشتها، وطبيعة التعديلات التي علينا القيام بها لإدارتها أو التعامل معها، التغيرات في الظروف الاقتصادية، ترك الكلية، الزواج والأبوة، الطلاق، فقدان الوظيفة أو التقدم في العمل، وأزمات منتصف العمر، شيخوخة الوالدين - كلها أمثلة من المشاكل التي نحن كبالغين يجب أن نتكيف معها. وجميعها تترك بصماتها على شخصيتنا، أو على الأقل يمكن أن تغير جزء من شخصيتنا. هذا هو الموقف الذي اتخذته منظرو الشخصية المعاصرون الذين اقترحوا ثلاثة مستويات للشخصية: السمات الطبيعية dispositional traits ، والاهتمامات الشخصية personal concerns ، وقصة الحياة life narrative (مكادامس McAdams ، ١٩٩٤).

المستوى الأول السمات الطبيعية، ترجع إلى الصفات الموروثة من النوع الذي ناقشه مكري وكوستا، الخصائص الشخصية التي وجدت لتظل مستقرة وغير متغيرة نسبياً من حوالي سن ٣٠ لما بعد.

المستوى الثاني من الشخصية، الاهتمامات الشخصية، ترجع إلى مشاعرنا الواعية، وخططنا، وأهدافنا- ما نريده، وكيفية محاولة تحقيق أو بلوغ ذلك، وما نحن مهتمون به، وكيف نشعر حول الناس في حياتنا. هذه المشاعر والخطط والأهداف تتغير ربما إلى حد كبير وبشكل متكرر، على مدى الحياة كنتيجة للقوى الاجتماعية والبيئية التي نتعرض لها.

مع ذلك سماتنا الطبيعية الكامنة - على سبيل المثال المستوى الأساسي من الاضطراب العصبي أو الانبساط أو الاجتهاد الذي به نواجه مواقف الحياة تبقى نسبياً دون تغيير.

المستوى الثالث من الشخصية هو قصة الحياة، وترجع إلى تشكيل أو صياغة الذات، وتحقيق الشعور بالهوية، وإيجاد الوحدة، والتماسك، والهدف في الحياة. فنحن باستمرار نخلق قصة حياة من نحن؟ وكيف ننسجم مع العالم؟ مثل اهتماماتنا الشخصية قصة الحياة تتغير في استجابة للمطالب المتغيرة لبيئتنا، ككبار نحن نتشكل ونعيد تشكيل قصتنا كلما نتجلى فترة من الحياة، لأن كل مرحلة تجلب مطالب مختلفة، وتحديات، وفرص نتعامل معها.

ومن هذه الرؤية إذن جزء من شخصيتنا – السمات الطبيعية الكامنة – تبقى مستمرة، في حين أن أحكامنا الواعية حول من نحن؟ وما الذى نود أن نكون عليه؟ هي عرضة للتغيير. (1)

### عامل الوعي:

تقريبا كل نظرية للشخصية وصفناها تتعامل مع العمليات الواعية أو المعرفية، إما بوضوح أو ضمنا. حتى فرويد ويونج، اللذان ركزا على اللاوعي، تكلموا على الأنا أو العقل الواعى الذى يدرك، ويفكر، ويشعر، ويتذكر- العقل الواعى هو الذى يُمكننا من التفاعل مع العالم الحقيقى، فعلى سبيل المثال من خلال الأنا نحن قادرون على إدراك المثيرات وتذكرها فى وقت لاحق أو تذكر صورها. كتب يونج Jung عن الأداء العقلانى الذى ينطوى على صنع الأحكام الواعية والتقييمات لتجاربنا.

وأولدر Alder أكد أننا واعون، وكاننا عاقلة قادرة على تخطيط وتوجيه مستقبلنا، وناقش أننا نحن نصوغ آمالنا وخططنا وأحلامنا أيضا نحن نؤخر الإشباع، ونتوقع بوعى أحداث المستقبل. كما ناقش ألبورت Allport أن الناس العاديين (أولئك الذين لا يعتبرون عصابيين) يعملون فى شروط واعية وعقلانية، وهم يدركون وفى سيطرة على العديد من القوى التى تدفعهم. أيضا اعتقد روجرز Roger أن الناس فى المقام الأول عاقلون، يحكمون بإدراك واعٍ أنفسهم وعالمهم التجريبي. ونظرية ماسلو Maslow تتضمن اقرار الوعي؛ وقد اقترح الاحتياجات المعرفية لكى نعرف ونفهم.

أما كيلي Kelly عرض التركيز الأكثر اكتمالا على العوامل المعرفية، وناقش بشكل مقنع بأننا نشكل افكارا حول بيئتنا وحول الأشخاص الآخرين، وأننا نبني توقعات عن الناس والأحداث استنادا إلى هذه الأفكار، كما نحن نصوغ الفرضيات حول محيطنا ونختبرها بالمقابلة لواقع تجربتنا. وبناءً على الأدلة اليومية، من الصعب أن ننكر أن الناس تفسر، وتنتبأ، وتتوقع كيف يمكن للآخرين أن يتصرفوا فى مواقف معينة، ومن ثم يتغير سلوكهم وفقا لذلك.

باندورا Bandura ينسب للناس القدرة على التعلم من خلال القوة و التعزيز غير المباشر، وللقيام بذلك يجب أن نكون قادرين على توقع وتقدير النتائج المترتبة على السلوك الذى نلاحظه مع الآخرين. ففى رأى باندورا نحن ننصو أو نتخيل النتائج المترتبة على التصرف بنفس الطريقة التى يفعلها النموذج، على الرغم من أننا قد لا نكون قد جربنا تلك النتائج شخصيا. ويعتقد رتر Rotter أننا ندرك أنفسنا ككائنات واعية، قادرون على التأثير فى تجاربنا، ونحن قادرون على تشكيل توقعات واعية محتملة لتعزيز اتباع سلوك معين، وتقدير احتمال أن التصرف بطريقة معينة سوف يؤدى إلى تعزيز معين.

وبالتالى هناك اتفاق واسع النطاق بين هؤلاء المنظرين على أن الوعي موجود ويمكن أن يؤثر فى الشخصية. وهناك اتفاق أقل مع ذلك، على دور أو حتى على وجود عامل آخر قد يؤثر على الشخصية وهو اللاوعي.

### عامل اللاوعي:

قدم سيجموند فرويد لنا عالم اللاوعي كما ينظر إليه على أنه مظلم، مستودع مخيف من أحلك المخاوف والصراعات. قوى تؤثر على أفكارنا الواعية وسلوكنا. فهناك بعض الأدلة البحثية تدعم فكرة فرويد بأن الأفكار والذكريات يمكن أن تقع فى اللاوعي، وأن القمع (وكذلك بعض آليات الدفاع الأخرى) قد يعمل على مستوى اللاوعي.

فعلى طول الحركة المعرفية فى علم النفس لم تكن لديها أهتمام فقط فى العمليات الواعية ولكن أيضا لها اهتمام متجدد فى اللاوعي. فالبحوث الحديثة تؤكد أن اللاوعي هو قوة ضخمة، بل وربما الأكثر انتشارا فى نفوذها من رأى فرويد، ومع ذلك فإن هذا التصور الحديث للاوعي ليس هو نفسه كما فى رأى فرويد. فالباحثون المعاصرون يركزون على العمليات المعرفية اللاواعية والتى وصفوها بأنها أكثر عقلانية من العاطفية.

فغالبا ما يشار إلى هذا اللاوعي العقلانى الجديد على أنه *nonconscious* لتمييزه عن لاوعي فرويد – الذى سماه بالقدّر الكبير المظلم من الأمنيات المكبوتة والرغبات. فالطريقة لدراسة اللاوعي العقلانى ينطوى على التفعيل نصف الواعى *subliminal activation*، وباستخدام هذا النهج يتم عرض محفزات مختلفة للتابعين دون مستوى الإدراك الواعى. وعلى الرغم من عدم قدرة التابعين على إدراك المحفزات فعملياتهم الواعية وسلوكهم يتأثر أو يتم تفعيله من خلال تلك المثيرات. والنتيجة الواضحة التى يمكن استخلاصها من هذه البحوث هي أن الناس يمكن أن تتأثر بمحفزات لا يمكنهم أن يروها ولا حتى أن يسمعوها (جرينوالد Greenwald, 1992). (2)

### - صور من الطبيعة البشرية: قضايا فى نظرية الشخصية:-

جانبا مهما من أى نظرية للشخصية هي صورة الطبيعة البشرية التى عبر عنها صاحب النظرية. فكل صاحب نظرية لديه تصور للطبيعة البشرية التى تعالج عدد من الأسئلة الأساسية مثل القضايا التى تركز على جوهر ما يعنيه أن تكون إنسانا. على مر القرون الشعراء والفلاسفة والفنانون صاغوا وأعادوا صياغة هذه الأسئلة، ونحن نرى محاولاتهم للرد عليها فى كتبنا

(1) مرجع سابق، ص ٤٧٥،

(2) مرجع سابق، ص ٤٧٥، ٤٧٦

الرائعة وفي اللوحات. كما أن منظرى الشخصية أيضا قد تناولوا هذه الأسئلة المقلقة و لم يتوصلوا إلى أى توافق فى الآراء أزيد من الفنانين أو الكتاب. فالصور المختلفة للطبيعة البشرية التى قدمها المنظرون تسمح للمقارنة ذات المغزى لوجهات نظرهم. هذه المفاهيم لا تختلف عن النظريات الفردية، بل هى ضمن الأطر التى ينظر فيها المنظرون إلى أنفسهم وغيرهم من الناس والتى ضمنها بنوا نظرياتهم.

### الإرادة الحرة أم الحتمية؟ Free will or determinism :-

القضية الأساسية التى تحدد صورة الطبيعة البشرية تهتم بالجدل القديم بين الإرادة الحرة والحتمية. فالمنظرون من كلا الجانبين سألوا الأسئلة التالية : هل نوجه بوعى مسار أفعالنا؟ هل يمكننا عفويا اختيار اتجاه تفكيرنا وسلوكنا، والاختيار بعقلانية بين البدائل؟ هل لدينا وعى مدرك وعلى قدر من ضبط النفس؟ هل نحن أسياد مصيرنا أم نحن ضحايا للخبرة الماضية، وللعوامل البيولوجية، وقوى اللاوعى، أو المحفزات الخارجية - قوى علينا بحيث لا نملك السيطرة الواعية عليها؟ هل شكلت الأحداث الخارجية شخصيتنا بحيث أننا غير قادرين على تغيير سلوكنا؟

بعض منظرى الشخصية اتخذوا مواقف مبالغة فى هذه القضية، وآخرون عبروا بوجهات نظر أكثر اعتدالا مجادلين أن بعض السلوكيات حددتها أحداث ماضية وبعضها يمكن أن يكون عفويا وتحت سيطرتنا.

### الطبيعة أم التنشئة؟ Nature or Nurture :-

القضية الثانية لها علاقة مع جدل الطبيعة والتنشئة. أيهما له تأثير أكثر أهمية على السلوك : السمات الموروثة (طبيعتنا أو الاستعداد الوراثى) أم ملامح بيئتنا (تأثيرات التنشئة من تربيتنا، وتعليمنا، وتدريبنا)؟ هل شخصيتنا حددت بقدراتنا وميولنا، واستعدادنا الوراثى، أم أننا نتشكل بقدر أكبر بسبب الظروف التى نعيش فيها؟ الشخصية ليست الموضوع الوحيد الذى تأثر بهذه المشكلة. فالجدل أيضا موجود حول مسألة الذكاء: هل الذكاء يتأثر أكثر بالاستعداد الوراثى (الطبيعة) أم من خلال تحفيز يقدمه المحيط المنزلى والمدرسى (التنشئة)؟

كما هو الحال مع مسألة الإرادة الحرة والحتمية، البدائل لا تقتصر على المواقف المبالغة. فكثير من المنظرين يفترضون أن الشخصية تتشكل بواسطة كلا المجموعتين من القوى. والبعض يرى الوراثة هى التأثير المهيمن والبيئة ذات أهمية ثانوية، والبعض الآخر يرون عكس ذلك.

### الماضى أم الحاضر؟ Past or Present :-

القضية الثالثة تنطوى على الأهمية النسبية للأحداث السابقة مثل تجاربنا فى مرحلة الطفولة المبكرة مقارنة مع الأحداث التى حدثت فى وقت لاحق من الحياة. ماهو المُشكّل الأكثر قوة للشخصية؟ لو افترضنا كما فعل بعض المنظرين أن ما حدث لنا فى مرحلة الرضاعة والطفولة أمر حاسم لتشكيل الشخصية، وبالتالي يجب علينا أن نؤمن بأن التطور اللاحق هو أقل كثيرا من مجرد تفاصيل للموضوعات الأساسية الموضوعية فى السنوات الأولى من الحياة. وتعرف هذه الفكرة بالحتمية التاريخية historical determinism، فشخصيتنا (هذا الخط من التفكير يذهب إلى) أنها مثبتة فى الغالب من سن 5 سنوات أو نحو ذلك، وتخضع لتغيير بسيط على مدار بقية حياتنا. فشخصية البالغ هى محددة وفقا لطبيعة هذه التجارب فى وقت مبكر.

الموقف المعاكس يرى أن الشخصية تكون أكثر استقلالاً من الماضى، وقادرة على أن تتأثر بالأحداث والتجارب فى الحاضر فضلا عن تطلعاتنا وأهدافنا للمستقبل. أما الموقف المتوسط اقترح أنه يمكن أن نفترض أن التجارب الأولى تشكل الشخصية ولكن ليس بشكل صارم أو بشكل دائم، فالتجارب اللاحقة قد تعمل على تعزيز أو تعديل أنماط الشخصية المبكرة.

### التفرد أم عمومية؟ Uniqueness or Universality :-

هل الطبيعة البشرية فريدة من نوعها أم عمومية؟ هذه قضية أخرى قسمت منظرى الشخصية. حيث يمكن اعتبار الشخصية بأنها فردية تبعا لكل شخص وتصرفه، فكل تعبير لا يوجد لديه نظيره أو ما يعادله فى أى شخص آخر. ومن الواضح أن إجراء مقارنة بين شخص مع آخر لا معنى لها، ومواقف أخرى تسمح للتفرد ولكن تفسر ذلك فى أنماط شاملة للسلوك المقبول على نحو عالمى، وعلى الأقل فى سياق ثقافى محدد.

### التوازن أم النمو؟ Equilibrium or Growth :-

القضية الخامسة تنطوى على ما نسميه أهداف الحياة النهائية والضرورية. اختلف المنظرون حول ما يشكل الدافع الرئيسى لدينا فى الحياة، هل نحن مجرد نوع من آلية تنظيم ذاتى ومحتوى طالما يتم الحفاظ على بعض التوازن الداخلى أو التعادل؟ هل نحن نعمل لتلبية الاحتياجات المادية للحصول على اللذة وتجنب الألم؟ هل سعادتنا تعتمد على حفظ التوتر إلى الحد الأدنى؟

بعض واضعي النظريات يعتقدون أن الناس حيوانات محدة للتوتر ساعية للمتعة، الآخرون ينظرون لنا بأننا مدفعون في المقام الأول بالحاجة إلى النمو، وتحقيق كامل طاقتنا، وللوصول إلى مستويات أعلى من أى وقت مضى من التعبير عن الذات والتطور.

### - التفاؤل أو التشاؤم؟ Optimism or Pessimism :-

قضية واحدة إضافية تعكس نظرة واضع النظرية عن الحياة. نحن يمكن أن نسميها التفاؤل مقابل التشاؤم. هل البشر أساساً أختار أم أشرار، طيبون أم قاسون، رحماء أم عديمو الرحمة؟ هنا نحن نتعامل مع مسألة أخلاق، وحكم القيمة، والتي من المفترض أن لا مكان لها في العالم الموضوعي والنزيه للعلوم. ومع ذلك فقد تم التعامل مع هذه المسألة ضمناً على الأقل من قبل العديد من المنظرين. بعض آراء المنظرين عن الشخصية الإنسانية هي أكثر إيجابية وأملاً عن غيرهم، فيصورتنا كإنسانيين، محبي الإيثار، واعييين اجتماعياً، ومنظرون آخرون يجدون عدد قليل من هذه الصفات في البشر، سواء بشكل فردي أو جماعي.<sup>(1)</sup>

### - نماذج من تنظير الشخصية :-

بسبب الاعتبارات الثلاثة – الجوهرية، والمحيطية، والانمائية التي تظهر بانتظام في نظريات الشخصية، مثل هذه النظريات محاولات معقدة وشاملة وكلية لفهم السلوك البشري.

توصلت إلى ثلاثة نماذج تنظير عريضة قابلة للتنفيذ: الصراع، الإنجاز، والاتساق.

### - نموذج الصراع THE CONFLICT MODEL :-

على المستوى الجوهرى core، النموذج الصراعى يفترض أن كل شخص بأمر لا مفر منه وقع في اشتباك بين قوتين كبيرتين كما هو محدد تعاملاً باستمرار، وهما بالضرورة متعارضتان، وغير قابلتين للتغيير. على سبيل المثال، أنت تستخدم التنظير الصراعى إذا كنت تفترض أن الناس يولدون ليس فقط مع محرك فطرى نحو الإيثار ولكن أيضاً مع محرك معارض نحو الأنانية، إذا أجريت هذا النوع من الافتراض فإن بقية التنظير عن السلوك البشرى تعكس صراعاً أساسياً غير قابل للحل، لأن هذين المحركين الفطريين يؤديان إلى اتجاهين سلوكيين متعارضين، على الرغم من أن نموذج الصراع رؤية مأساوية حقاً للحياة، حيث لا يمكنك الحصول على ما تريد تماماً، فقد كانت شائعة جداً في تنظير الشخصية.

على المستوى المحيطى peripheral، وفقاً لنموذج الصراع، فإن أفضل ما يمكن أن يتحقق من حيث نمط الحياة هو حل وسط، فنمط الحياة المثالى ينطوى على التوازن الديناميكي للقوتين المتعارضتين، مع كل منهما نحصل على تعبير متساوٍ أكثر أو أقل.

أنماط الحياة الأقل مثالية تنطوى على محاولة لإدانة مسبقة إلى إنكار وجود واحدة من القوى المتعارضة بشكل قاطع بينما تعبر عن الأخرى. على سبيل المثال قد ينكر الناس الجزء الأنانى من أنفسهم ويكونوا على وعى من التعبير فقط عن الجزء الإيثارى. بينما الذى يبدو أنه قديسى هو عدم القدرة على التعبير عن الأنانية الفطرية التى سوف تطاردهم مما يمكن أن يظهر التوتر غير القابل للتفسير أو كراهية الذات، محددات نمط الحياة بغير المثالى.

على مدى النمو development، نموذج الصراع يميل أيضاً إلى التأكيد على حل وسط كمثالى. فالوالدان يجب أن يكونوا حريصين على عدم المكافأة ولا العقاب لعدد كبير من تصرفات الطفل النامية، وذلك لأن الشباب بحاجة إلى أن يتعلم أن يعبر عن كل جوانب طبيعته الفطرية، ولكن الصراع الكامل قد يكون إذا كان والداه محاولين لقمع بعض السلوكيات الأخرى فى أبنائهم الصغار، لتعليمهم الاتساق الأكبر أو لأن بعض السلوكيات تبدو غير مقبولة، فهى تشجع على النشوء غير المثالى. هذا القمع للمحرك الفطرى غير القابل للتغيير قد يظهر تصاعداً فى التوتر، والقلق، والتعاسة الغامضة، وعدم القدرة على إيجاد هدف فى الحياة.

### - النسخة النفسية الاجتماعية The Psychosocial Version :-

استخدم منظرون الشخصية نسختين من نموذج الصراع، والتي تختلف فى الدرجة إلى ما يمارسه المجتمع من تأثير على السلوك البشرى. فى كل منهما ينبع الصراع من القوتين الكبيرتين للنزعة الجوهرية. فى النسخة النفسية والاجتماعية، تكمن قوة واحدة داخل كل فرد ولكن القوة الأخرى تكمن فى المجموعات أو المجتمعات، وهذا هو ما تمارسه قوة واحدة من متطلبات على السلوك الفردى، فى حين أن القوة الأخرى تمارس متطلبات على أداء المجموعة. فى هذا النوع من التنظير تبرز القوة الفردية كمعادٍ للمجتمع antisocial، فى حين أن القوة الاجتماعية تبرز باعتبارها محدداً للصالح العام.

على الصعيد المحيطى، نظريات الصراع النفسى الاجتماعى لديها نهج منبه إلى حل وسط للتعبير عن الأداء المثالى. على وجه الخصوص، نمط الحياة المثالية ينطوى على أن الشخص فى التعبير عن كلا من القوى الكبرى المتصارعة، ولكن دون

(1) مرجع سابق ص ٣٣ ، ٣١

أى اعتراف أو وعى بالقوى المعادية للمجتمع. هذا النقص فى الوعي هو نتيجة واقية، وهى عملية من الكذب على الذات، مما يعنى أن الجماعات أو المجتمعات هى أقوى من الأفراد.

كما فى النمو، نظريات الصراع النفسى الاجتماعى مسلمة بأنه من الأفضل عند التفاعل بين الآباء والأطفال أن يعزوا فى الواقع من القصور الدفاعى بشأن الوعي للسلوكيات المعادية للمجتمع التى يعرب عنها! لذا إذا كنت اجتماعيا جيدا، نلبي حاجة التعبير عما يبلغ الأناية دون أن يلاحظ منا ما يحدث فى الواقع. فى نظريات الصراع النفسى الاجتماعى تعتبر أنه من الأفضل أننا لا نعرف حقيقة أنفسنا.

### - النسخة داخل النفس The Intrapsychic Version -

فى نسخة داخل النفس من نموذج الصراع كل من القوى الكبيرة التى تنشأ فى داخل الشخص، بغض النظر عن ما إذا كانت هى أو هو بمثابة فرد أو كعضو فى المجتمع. نظرا أن النزعات الجوهرية الإيثار والأناية، هذه المرة كلا النزعتان تمارسان الضغط للتعبير سواء كان الشخص وحده أو فى صحبة الآخرين. ففى نسخة داخل النفس، فإن هذا الشخص يكون فى صراع بقدر ما فى النسخة النفسية الاجتماعية، ولكن بدلا من التركيز على ان الفرد على الجانب المضاد ضد المجتمع، فإن هذا النهج يعرض جانبا من الفرد ضد الجانب الأخر منه.

فى مدى التنظير المحيطى، نمط الحياة المثالى لا يزال يعبر عن جميع النزعات الجوهرية المتضاربة ولذلك ستمثل نوعا من الحل الوسط. ولهذا فإن نسخة داخل النفس تؤكد الدفاعية أقل فى صياغة شروط التسوية. فالأشخاص المثاليون يمكن أن يكونوا فى الواقع إلى حد ما على علم من طبيعتهم المتصارعة، على الرغم من أنهم قد يعانون أكثر من التناقضات الخاصة بهم.

على مستوى النمو، نظريات الصراع داخل النفس تؤكد على مثالية تلك التفاعلات بين الآباء و أطفالهم فى تعزيز قبول الجوانب المختلفة المتصارعة من الطبيعة البشرية، ولكن الأمر يعتبر خدعة للمنظرين لصياغة كيف أن إدراك الصراع الداخلى غير القابل للحل فى أمكانه تشكيل المثال الأعلى. نظريات الصراع داخل النفس هى بقدر النموذج المأساوى لنظريات الصراع النفسى الاجتماعى.

### - نموذج الإنجاز THE FULFILLMENT MODEL -

على المستوى الجوهري، هناك قوة واحدة فقط كبيرة تقع ضمن الفرد. الحياة ينظر إليها كتعبير يزداد تدريجيا لهذه القوة. وهكذا إذا كانت القوة التى تم اختيارها هى الإيثار، فمن ثم النظرية ستفسر تكشف السلوك البشرى من خلال فترة الحياة باعتبارها تدريجيا تعبيراً أكثر اكتمالا، وفعالية وتطورا لهذا الميل الفطرى. وباختصار فإن الناس يصبحون أكثر فأكثر قريبين مما كانوا يعتمون أن يكونوا عليه. بحكم طبيعته، إن نموذج الإنجاز أبسط وأكثر بطولية من نموذج الصراع.

على المستوى المحيطى، نظريات الإنجاز تجعل نمط الحياة مثاليا الذى يشكل تعبيراً أكبر على الأطلاق لقوة واحدة كبيرة، فأنت تتقبل وتحترم من تكون، وتبذل كل جهد للتعبير عن ذلك فى الحياة اليومية. فى المقابل التأثير الضال الناجم عن الوالدين والمجتمع، وأنماط الحياة غير المثالية تمنع أو تعرقل التعبير عن القوة الكبيرة، بذلك تتعلم بخفض قيمة القوى الخاصة بك وتحاول منع التعبير عنها، وتفضل بدلا من ذلك أن تتناسب وتقل ما يتمناه الآخرون لك القيام به.

بالتحدث إنمائيا، فإن نظريات الإنجاز ترى تلك التفاعلات مثالية مع الآباء التى تشجع فى الأطفال الإحساس بالقيمة الكامنة والاستعداد الجرى لاتباع حدىهم فما يجب القيام به وعدمه. ويشتمل نمط الحياة المثالى الناتج استكشافا وخيالاً أكثر، مع قليل من النقد الذاتى و تأنيب الضمير. وفى المقابل، يبنى النمو غير المثالى فى الأطفال نقصا فى الثقة بالنفس، والامتنال للأعراف الاجتماعية، وعدم الرغبة فى اغتنام الفرصة.

يعتبر نوع الصراع الذى لا يمكن تجنبه، والمستمر المقدم فى نموذج الصراع بعيدا عن المثالى فى نموذج الإنجاز. فى النهج الأخير، دائما ما يعبر الصراع عن النمو وأسلوب الحياة غير المثالى. أما إذا حدث ذلك الصراع بين الفرد والمجتمع، فإنه يعكس المزيد من الخطأ من جانب المجتمع عنه من جانب الفرد، ويكون فشل الفرد بسبب المجتمع. فمنظرو نموذج الإنجاز ظهروا كأنهم نقاد اجتماعيون طبيعيون. فى المقابل، أصحاب نظريات الصراع ولا سيما هؤلاء عن القناعة النفسية الاجتماعية، يعتبرون المجتمع ممارسا للسيطرة الضرورية على الأفراد المعادين للمجتمع antisocial.

### - نسخة التحقيق The Actualization Version -

مثل نموذج الصراع فإن نموذج الإنجاز لديه نسختان. فى نسخة التحقيق، القوة الكبيرة أو النزعة الجوهرية تنتطوى على ما يفترض أن يكون عليه الفرد، فالعيش بغنى يعنى تجسيد الإمكانيات التى يجلبها الأشخاص معهم إلى العالم عند الولادة.

على المستوى المحيطى، نمط الحياة المتعلم هو إما التعبير الكامل عن الإمكانيات أو بعض النسخ الواهنة من هذا التعبير. فمن غير الضرورى القول بأن التعبير الكامل عن الإمكانيات هو أسلوب الحياة المثالية، فى حين التعبير الواهن ليس كذلك، ففى محاولة أن يصبح الأطفال على ما يريده الوالدان لهم، يفشل الأطفال فى التعبير عن الإمكانيات الخاصة بهم بالكامل.

وعندما يعبر الناس عن نمط الحياة المثالي سيكونون مرتاحين مع أنفسهم وكذلك ووديين عموماً في تصرفاتهم تجاه الآخرين. كما إنهم لن يبحثوا باستمرار وراء بعض الأهداف بعيدة المنال، وسيكونون سعداء بدلاً من ذلك بما يفعلونه، مقدرين، محبين، متفهمين تجاه الآخرين، وسوف يفضلون العلاقات الشخصية (على سبيل المثال، الصداقات) عن المشاركة الأكثر تجريداً مع المؤسسات الاجتماعية (على سبيل المثال، كونهم سياسيين). ومن ناحية أخرى فإن مع نمط الحياة غير المثالي سيشعرون بالإحباط وعدم الانجاز، وطوال الوقت سيسعون لتحقيق أهداف بعيدة المنال واستحسان المجتمع، دون الكثير من التعبير عن أنفسهم.

### - نسخة الكمال THE PERFECTION VERSION :-

على النقيض من نسخة التحقيق نسخة الكمال لنموذج الإنجاز لم تؤكد على الإمكانيات المحددة وراثياً كثيراً بقدر ما هي افتراضات شاملة لما هو على ما يرام، وممتاز، وذو مغزى في حياة الإنسان. فالقوة الكبيرة تضغط على الناس للسعي نحو المثلى العليا ideals من الكمال بغض النظر عن ما إذا كانت تتطوى على التعبير عن نقاط قوتهم الوراثة الخاصة أو الدونية. فمنظرو تحقيق الكمال افتراضوا أن إيجاد شعور حي لمعنى الحياة هو الهدف الأسمى، عن ما نحن موجهون إليه بشكل طبيعي.

منظرو الكمال ميزوا النمو development بالكفاح، فبالنسبة للمنظري التحقيق، التطور هو تعبير سهل وطبيعي عن الإمكانيات الموجودة، طالما أن الشاب يحصل على التقدير والحب غير المشروط من الآباء والأمهات. في المقابل فيما يتعلق بمنظرو الكمال التطور هو عملية مستمرة من تحسين الذات التي غالباً ما تكون مؤلمة بسبب الحاجة للمعرفة من فشل الشخص، فلكي تكون قادراً على القيام بذلك يحتاج الشاب إلى قوة داخلية أو شجاعة للحفاظ على السعي نحو المثلى العليا المطلوبة.

على الصعيد المحيطي، كما يؤكد أصحاب نظرية الكمال أن نمط الحياة المثالي للشخصية الفردية، يقيم فيه الأشخاص خياراتهم بأنفسهم في محاولة للحصول على أقرب قدر من الأهداف العامة التي تعبر عنهم، على الرغم من أنهم قد يواجهون الجزع كتوجيه المياه العشوائية، لكنهم سوف يشعرون بكثير من الحيوية والإثارة أيضاً، لأن كل ما أنجز سيشعرهم بأنه من عملهم الخاص بهم، وبناءً على اختيارهم، وعلاقاتهم الاجتماعية ستكون قريبة وشخصية، كل ما سيقومون به سيظهر موقفاً بناءً، وتعاونياً. وسوف يميلون إلى أن يكونوا مشاركين في نسيج المجتمع، معبرين عن رغباتهم واحترامهم لحقوق الآخرين، ويسعون دائماً إلى تحسين أنفسهم والآخرين والمجتمع في نفس الوقت.

أما أولئك الذين لديهم أنماط الحياة غير المثالي سيكونون أكثر تقليدية، ساعين دائماً إلى موافقة الآخرين، مع فكرة ضئيلة عن ما يريدون أن تكون حياتهم مثله، فيقبلون بدلاً من ذلك القواعد والصور النمطية للمجتمع. كما سيكونون غيورين من الآخرين الذين يبدو أنهم ماضون قدماً ومن المرجح أن رد فعلهم سيكون بسلوكيات تنافسية وتدميرية.

### - نموذج الاتساق THE CONSISTENCY MODEL :-

على المستوى الجوهري، نموذج الاتساق يركز قليلاً على القوى الكبيرة، سواء كانت مفردة أو مزدوجة، في الصراع أو عدمه، بل يؤكد على التأثير التكويني من ردود الفعل من العالم الخارجي على الفرد. فكلما تقترب من التفاعل مع العالم، نفع ذلك مع بعض التوقع أو المعيارية، هذه التوقعات قد تكون فطرية (على سبيل المثال الخوف من الظلام) أو تعليمية (على سبيل المثال أمة دائماً ما تحتضنني). وعندما نتفاعل مع العالم، فإن تجربتنا تؤكد أو لا تؤكد هذه التوقعات أو هذه المعايير. وإذا كانت ردود الفعل متنسقة مع ما كنا نتوقعه، فكل شيء على ما يرام. ولكن إذا كانت لا تتفق مع قواعد التقييم (المعايير) فهذا ما يخلق عدم الراحة النفسية (القلق والغضب) والضغط لفعل شيء للتخفيف من حدة المشكلة.

الحياة تفهم كمحاولة موسعة للحفاظ على الاتساق، و نمط الحياة المتعلم للفرد يعبر عن هذا الجهد، وأفضل نمط للحياة هو الذي يقلل من التناقضات التجريبية، مهما كانت أنماط العادة تتطوى عليها.

كما يمكنك أن تستخلص أن نظريات الاتساق تقلل من المحتوى في البيانات الجوهريّة و المحيطية، كما أنها أيضاً تقلل من المحتوى في بياناتها الإنمائية، مع القليل من الشرح على ما يحتاج إليه الآباء للقيام به من حيث المحتوى الملموس، بالأحرى تفترض ما على كل من الوالدين القيام به للتقليل من التضاربات على الأرجح هو الأفضل. ولكن هناك أيضاً تحيز؛ فالتناقضات سوف تحدث على الأرجح في واحدة أو جانب آخر من المعيشة، والسلوك الناتج سوف يؤثر على أنماط الحياة الناشئة. وهكذا فإن الالتزام الشامل لنشاط منظم المشاريع أو علاقة شخصية اجتماعية جميعها سوف يمكن تفسيرها وفقاً لأصحاب النظريات من حيث المجالات التي فيها تناقض أكبر أو أقل خلال النمو، وبسبب التقليل من الإمكانيات والمثلى العليا وما شابهها، فنظريات الاتساق تقلل من التمييز بين أنماط الحياة المثالية وغير المثالية وأنماط النمو، إلا أن الهدف العام من المعيشة هو الحد من التضارب التجريبي.

في حين يفترض أن الصراع مستمر في نظريات الصراع، وأنه لا مفر منه، فهو محدد في المحتوى، ويمكن السيطرة عليه ولكن لا يمكن القضاء عليه، أما التضارب الذي يفترض في نظريات الاتساق يمكن تجنبه ويختلف في المحتوى، هذا هو السبب الرئيسي وراء نظريات الاتساق ليست هي مثلها في نظريات الصراع. وعلى النقيض من نظريات الإنجاز فنظريات الاتساق لا تفترض أية قدرات محددة سلفاً أو مثل عليا كمرشدة للعيش داعية بدلاً من ذلك إلى الاتساق، بغض النظر عن التوقعات أو

المعايير التي يتعامل معها التفاعل. هذا هو السبب الرئيسي وراء أن نظريات الاتساق ليست هي نفسها كما هي في نظريات الإنجاز.

### **- نسخة التنافر المعرفي The Cognitive Dissonance Version :-**

نموذج الاتساق أيضا له نسختان. في نسخة التنافر المعرفي تفترض أن الاتساقات والتناقضات بثبات تشارك في عمليات التفكير؛ لذلك قد يكون هناك تضارب بين توقع ما يمكن أن يحدث وإدراك ما حدث بالفعل.

في محاولة لحل التناقضات، نجد الأشخاص بحاجة إلى تغيير توقع ما يمكن أن يحدث أو إدراك ما حدث. تغيير التوقعات من الواضح أنها عملية تفكير داخلي (على سبيل المثال قد أكون مخطئ في توقع هدية في الاحتفال). وتغيير إدراك ما حدث قد تكون عملية التفكير باستثنائية (مثلا ربما قد أسئت الفهم ، والاحتفال لم يكن حول إعطاء هدايا ) أو قد ينطوي على تغيير في التصرف الذي من شأنه أن يسمح بإدراكات مختلفة (مثلا إذا أعطيت الناس هدية، ربما أنهم سوف يعطوني واحدة في المقابل، وحينئذ لن أكون قد اصبت بخيبة أمل). هكذا يمكنك أن تتخيل مجموعة واسعة من أنماط الحياة التي تنجم عن محاولة الحد من التناقضات.

### **- نسخة التفعيل The Activation Version :-**

على النقيض من نسخة التنافر المعرفي تؤكد نسخة التفعيل الاتساق بين الدرجة المعتادة من التوتر الجسدي (وتسمى التفعيل) ودرجة التوتر التي توجد في الواقع . كما يفترض أن التوتر الجسدي تساهم فيه جميع عمليات تفكير الشخص، والعواطف، والأنشطة، فنسخة التفعيل تظهر كأكثر تعقيدا وشمولا من نسخة التنافر المعرفي .

فعندما تكون مستويات التفعيل الحالي والمعتاد متلائمة يكون هناك هدوء. ولكن عندما يكون التناقض موجودا، يكون هناك ضغط إما لخفض أو لزيادة التفعيل الحالي لتتناسب بشكل أفضل مع ما هو معتاد . الأفكار، والعواطف والأنشطة (التصرفات) يمكن تغييرها في محاولة للحد من هذا التناقض عن طريق تضخيم أو تقليل التفعيل. أنماط الحياة المتعلمة تتطور من النهج المعتاد لزيادة أو لخفض التحفيز من خلال أنماط معينة من التفكير، والعاطفة والتصرف.<sup>(١)</sup>

(١)

Salvatore R. Maddi , Personality Theories, A comparative analysis, 1996 by Brook/ Cole Publishing Company ,ITP An International Thomson Publishing Company, edition 6, p18,23

## الدافع

### الدافع Motivation:

عندما نستخدم كلمة الدافع فهي تعني، البدء، والقوة، والاستمرار في السلوك. في هذه الدلالة يبغي المرء من الوصل بين الكلمات (المحفز) motive و (الحافز) الدافع motivation: فالدلالة القوة، والتفعيل، وبذل القوة التي تنتج إما من الشروع في السلوك أو التحول من نشاط مستمر إلى آخر.<sup>(1)</sup> والسلوك الدافع يجب أن يبدأ مع بعض الأوضاع أو الشروط التي تتطلب من الشخص أن يتبنى الهدف، مثل أن يسبقها نوعان من السوابق، إحداهما هي بعض الاحتياجات بحيث أن الشخص قد قاسى شيئاً وهذا يحركه لنشاط ما يتفق مع تلك الحاجة، والأخرى هي بعض الحاجات الملحة على الشخص التي تنشأ من البيئة وتفاعله مع احتياج أو احتياجات كثيرة تحفزه للعمل.

قبل سنوات عالم الشخصية النفسي الكبير هنري موري Henry Murray سنة (١٩٣٨) سمي هذان الضغطان على الشخص بالاحتياجات *needs* (المطالب الشخصية *personal demands*) والضغط *press* (المطالب الظرفية *situational demands*)، هذه المصطلحات لا تزال تثير شعوراً بالقوى التي يعانيها الشخص في مثل هذه الحالات: الاحتياجات من الداخل والضغط من الخارج.

الخطوة الثانية في العملية التي وصفناها تشتمل على الالتزام بمسار عمل، أو النية *intention*، التي من شأنها أن تعطى للشخص فرصة جيدة للوصول إلى الهدف. فبعد أن يتم تحديد الهدف والنية لتحقيق ذلك قد اختيرت، يجب على الشخص ابتكار ووضع استراتيجية *strategy*، هذه الاستراتيجية هي خطة للبدء في السلوك المطلوب.<sup>(2)</sup>

### الأسس الدافعة لتقديم الذات:

الكتابات حول الموضوع تسرد عدداً كبيراً من دوافع الإنسان التي يمكن تحديدها، بعض من هذه الدوافع ينتج سلوكاً يجعل الفرد أقرب إلى الناس الآخرين ويعزز الإحساس بالانتماء للمجتمع بين الشخص وبيئته أو بيئتها الاجتماعية، والبعض الآخر يربطه بسلوك يميل لفصل الفرد عن المجتمع المحلي المباشر ويؤكد على المكاسب الفردية التي هي إما مستقلة عن أو على حساب أشخاص آخرين في البيئة الاجتماعية.

هذه الفئات من الدافع تتوافق مع التمييز الأساسي بين النزعة الفردية والسلوك الاجتماعي والتي اعترف بها العديد من علماء النفس (على سبيل المثال، وجينز Wiggins، ١٩٩٢)، وقد حدد باكان Bakan (١٩٦٦) هذه المفاهيم باسم "الأنماط *modalities*" الأساسية للوجود الإنساني. واحدة دعاها بالقوة "agency"، وهي تتعلق "بوجود الكائن الحي كفرد" وتظهر في سلوكيات كالدفاع عن النفس وإثبات الذات. والأخرى وصفت بالمشاركة "communion"، وهي تشير إلى "مشاركة الفرد في جسم أكبر بعض الشيء الفرد فيه جزء" (باكان، ١٩٦٦، ص ١٥). الفرق بين هاتين الطريقتين من الحياة تصنف العديد من الدوافع الاجتماعية المألوفة. فهؤلاء المرتبطون بالمشاركة يَمُرُّوا على أسماء مثل الانتماء، والألفة، الارتباط أو الموافقة، والتعاطف، والإيثار. أما الدوافع المرتبطة بالقوة تشتمل على تأكيد الذات والاستقلال والإنجاز، والسلطة، والسيطرة.

بعض الملاحظين (على سبيل المثال، هوجان Hogan، ١٩٨٣) اقترح هاتين الفئتين من الدوافع التي نشأت من حقيقة أن البشر من بداية إقامتهم في مجموعات نظمت تلك الجماعات وفقاً لتسلسل هرمي للمكانة. وهكذا تطورت اثنان من احتياجات الإنسان الأساسية: الحاجة إلى وضع الهيمنة والحاجة إلى الشمول والانتماء. هذه الاحتياجات بدورها تؤدي إلى الخوف من الفشل الاجتماعي، فالأشخاص يخشون الفشل الاجتماعي لأنه يهدد كل من اندماجهم داخل المجتمع ووضعهم الاجتماعي والهوية، فكونهم مرفوضين من قبل الآخرين يعزل الشخص من هويته أو هويتها الاجتماعية المرجوة، والشخص يصبح كأننا أقل تقديراً. فالناس تعمل بجد في صنع انطباعات جيدة على الآخرين حتى إن كان هذا لن يحدث.<sup>(3)</sup>

### الطبيعة الاجتماعية للدافع THE SOCIAL NATURE OF MOTIVATION:

هناك افتراض رئيسي هو أن معظم دوافع الإنسان تقوم في سياقات اجتماعية، نبدأ بعرضنا لهذا الموقف مع الحقيقة البديهية: الإنسان العاقل *Homo sapiens*، فالإنسان هو حيوان اجتماعي. حيث إن معظم الناس يتفقون مع هذا التصريح؛ فالنساء نادرون نسبياً. البشر سواء كانوا محبين أو كارهين، مساعدين أو ضارين، مهيمنين أو مذبذبين يقضون معظم وقتهم مع بعضهم البعض. فالبشر تطورا كجنس بشري اجتماعي في حزم صغيرة أو مجموعات من الناس يعيشون معاً من أجل الحماية

(1) RUSSELL G. GEEN, Human Motivation, A Social Psychological Approach, University of Missouri, BROOKS/COLE PUBLISHING COMPANY, PACIFIC GROVE, CALIFORNIA, p14

(2) مرجع سابق، ص ٢، ٣.

(3) مرجع سابق، ص ٢٤٩، ٢٥٠.

المتبادلة والاصطياد الجماعى والجمع. اليوم الناس يعيشون فى محيط مادى مختلف عن ذلك للأسلاف البعيدة وطبيعة الروابط الاجتماعية التى تربطهم مع بعض قد تغيرت، ولكن الطبيعة البشرية لا تزال فى الأساس اجتماعية.

القول بأن البشر هم حيوانات اجتماعية لا يعنى أنهم أفراد دائما محبوبون للمجموعة ، مؤنسون، ومتعاونون يحترمون حقوق الآخرين. فأحيانا الأوساط الاجتماعية هى مناسبات للجريمة والكراهية والاستغلال وسوء المعاملة. ومع ذلك، سواء كان الشخص فى مجموعة، أو ضدها، أو مجردا معزولا عن ذلك، فسياق التصرف والدافع وراء ذلك لا يزال اجتماعيا. فالأفعال المحفزة من قبل البشر دائما تقريبا تجرى داخل البيئة الاجتماعية، وعلاوة على ذلك مثل هذا النشاط يتطلب عادة بيئة اجتماعية، بغض النظر عما إذا كان الدافع يقرب الآخرين أو يضع المرء ضدهم.

## الخلفية التاريخية لعلم النفس التحفيزى The Historical Background of Motivational Psychology :

### - المفاهيم الكلاسيكية للدافع:

فكرة الدافع كما يفهم معظم الناس أنها كلمة تصف الشروع فى التصرف، واختيار الأهداف للسلوك، وبذل الجهد - وهى قديمة جدا. ويتجلى ذلك على سبيل المثال فى وجهات النظر التى أستمتر على أساسها سلوك الإنسان خلال العصور الكلاسيكية القديمة. كانت واحدة من وجهات النظر تلك مذهب المتعة *Hedonism* ، المذهب القائل بأن السلوك البشرى يحركه البحث عن المتعة. فمذهب المتعة الرئيسى كان لابيقوريون *Epicureanism* الذى درس أهمية المتعة، ولكنه أيضا عقد أهم سبب للنشاط هو تجنب الألم. ومع ذلك هناك مذهب كبت الغرائز *Stoicism* ، الذى درس فضل تقديم حياة المرء طوعا فى انسجام مع قوانين الطبيعة. أما فكرة تحقيق الذات *self-actualization* وتلبية إمكانية الفرد هو المفهوم الذى يبدو أنه حديث تماما، يمكن العثور عليه فى كتابات أرسطو (واترمان Waterman ، ١٩٨٤). وهناك فلاسفة كلاسيكيون آخرون درسوا أهمية فضيلة المواطنة والتزام المواطنين لأداء مسؤوليات معينة للمجتمع. فى مختلف هذه الأفكار الكلاسيكية يمكننا أن ننبين الخطوط العريضة لبعض المواضيع الحديثة التى تكمن وراء نهجنا المعاصر إلى الدافع : **السعى للمتعة، الإرادة، الالتزام بالأهداف، والمسؤولية الاجتماعية.** بمعنى أن مثل هذه الأفكار ظلت معنا منذ فجر الحضارة الغربية، ويمكننا أن نقول أن الدافع كان دائما مدركا كمتغير فى السلوك البشرى.

### - الطوعية Voluntarism :

كانت العقيدة المسيحية الرسمية للدافع هى المزج بين التعاليم اليهودية مع الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ودُعيت بالأفلاطونية الجديدة *Neoplatonism*. فهذا الأخير، هو امتداد للتقاليد الكلاسيكية لأفلاطون، التى رأت أن العالم المادى هو فاسد ومنحط ، وأنها يجب أن ترتفع فوقه للحصول على تحقيق مستوى أعلى وأكثر مثالية. فرفض العالم يعنى بطبيعة الحال رفض الملذات الجسدية. وهذا المذهب بلا شك نادى إليه أوائل الأخلاقيين المسيحيين، والذى أصبح فى النهاية مندمج فى اللاهوت المسيحى فى القرن الخامس للقديس أوجسطين *St. Augustine*، وهو المتحول إلى الأفلاطونية الجديدة والفيلسوف الكبير الأول للكنيسة ، أوجسطين أعلن شرور اللذة الحسية، جاعلا الإرادة مركزية لجميع مظاهر السلوك البشرى. فالتعاليم الأساسية لكتابه الكبير " مدينة الله *The City of God* " هى أن الروح أبدية، ولإنقاذ روح المرء يجب أن يتجاوز مطالب ورغبات الجسد التى الروح فيها ، خلال حياة الإنسان على الأرض، والتى تسكنها لفترة وجيزة. وأنها لدينا إرادة حرة لصنع خيارنا الخاص ، سواء كان لإخضاع الجسد للروح واختيار طريقة الخلاص التى تقدمها الكنيسة، أو الاستسلام لشهوات الجسد، وبالتالي اختيار الطريق المؤدى إلى الهلاك الأبدى. هذا المذهب أصبح سائدا عن الدوافع البشرية طوال العصور الوسطى.

**فقد تميزت وجهة نظر القرون الوسطى للإنسان بافتراضين كان أولهما أن البشر واعون وعلى علم بما يفعلون. وثانيهما أن العمليات الطبيعية للشخص المدرك بوعى، عمليات نحن نعطيها اليوم تسمية الإدراك، والتأثير، والعاطفة، وهم تحت سيطرة الإرادة.** هذا هو إرث أوجسطين، حيث كان مطلوبا من الشخص ليس فقط أن يتصرف وفقا لعقائد الكنيسة ولكن أيضا أن يفكر بالأفكار الأرثوذكسية، وكان القيام بخلاف ذلك دعوة للإدانة بوصفه زنديق. حتى الحالات العاطفية اعتبرت أنها تحت السيطرة الواعية، فما نسميه اليوم بالاكتئاب على سبيل المثال كان يعتبر خطيئة من قبل كنيسة القرون الوسطى بدعوى أن المسيحيين يجب أن يكونوا سعداء وفرحين فى خلاصهم (جackson ، ١٩٨٦). فيمكن للمرء أن يقول لذلك أن مفهوم الدافع يُعرف بأنه كالإرادة البسيطة التى كانت حجر الزاوية فى نهج القرون الوسطى للسلوك. وعلى الرغم من أن عصر النهضة و حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى فى القرن ١٦ أجرت العديد من التغييرات على العقيدة المسيحية والممارسة ، فإن الدور الرئيسى للإرادة واصل ليكون مقبولا من جانب البروتستانت والكاثوليك على حد سواء.

أما نهج المتعة *hedonic approach* بالنسبة للدافع لم يتحول كبديل رئيسى للطوعية حتى القرن ١٧، وعندما عاد اكتسب لغة مفاهيمية جديدة : **لغة العلم والقانون الطبيعى والتجريبية.** فنحن جميعا على دراية أكثر أو أقل بالثورة العلمية التى جرت فى القرنين ١٧ و ١٨. فخلال هذا الوقت علماء كبار مثل كوبرنيكوس *Copernicus* و جاليليو *Galileo*، ونيوتن *Newton* قاموا باكتشافات أدت إلى فهمنا للكون، وصيغت القوانين الفيزيائية لشرح عملها. فى مثل هذا الجو كان لا بد أن شخصا ما سيحاول تفسير سلوك الكائنات الحية من حيث القانون الطبيعى، المحاولة بدأت فى فرنسا فى القرن ١٧ عندما اقترح الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت *Rene Descartes* أن الحركة الحية جوهريا تتأسس على رد الفعل المنعكس *reflex*، وهو رد فعل

طبيعي وفطري لمؤثر خارجي لا يتطلب أى وساطة واعية أو إرادة. ففي الواقع درس ديكارت ذلك في جميع الحيوانات دون البشر، وهو أن السلوك يتكون من لا شيء سوى هذه الأنماط الحركية الانعكاسية. لم يكن على استعداد لشرح كل سلوك إنساني بنفس الطريقة، ومع ذلك احتفظ بالاعتقاد في النفس البشرية والإرادة الواعية.

### - المادية Materialism :

في حين كان ديكارت غير راغب في تقليص السلوك البشري إلى علم الانعكاسات reflexology، إلا أن غيره ممن جاءوا بعده من وطنه الأم كانوا أقل تقيداً. وكان واحداً منهم بيير جاسندي Pierre Gassendi الذي كان يؤيد موقفاً جذرياً تماماً في ذلك الوقت، وهو أن الوعي لا يلعب أى دور في إثارة أو توجيه السلوك البشري ولكنه مجرد منتج ثانوي عرضي، أو ظاهرة إضافية من العمليات الفيزيائية والمادية، فهي ردود الفعل المنعكس التي وصفها ديكارت. كل سلوك بشري يتكون فقط من ردود أفعال عمياء ولا واعية لمؤثرات من البيئة.

وكانت الشخصية المهمة الأخرى لهذه الفترة من الفكر الفرنسي جوليان أوفورا دو لامترى Julian Offray de la Mettrie<sup>(1)</sup>، الذي كانت وجهة نظره يمكن فهمها بسهولة من عنوان كتابه الرئيسي: إنسان الآلة Man the Machine، في تشبيهه للإنسان بالآلة، لامترى استخدم ما يسمى بالاستعارة.

ففي هذا الوقت أصبح الأوروبيون على دراية بالأدوات الميكانيكية مثل الساعات وصناديق الموسيقى، لذلك كانت الاستعارة الميكانيكية بسهولة في متناول اليد. وكانت الغاية من الاستعارة واضحة بأن البشر لا يمكنهم الشروع في شيء من تلقاء أنفسهم تماماً كما في الآلة لا يمكنها أن تستمر في الحركة حتى يتم تفعيلها من قبل بعض القوى الخارجية. هذا المذهب أصبح يعرف باسم المادية الميكانيكية mechanistic materialism التي مارست تأثيراً قوياً على علم النفس في القرن 19، وهي اليوم الأساس الجوهري لمجال علم النفس الفيزيولوجي.

### - التجريبية البريطانية وكانط British Empiricism and Kant :

المفكرون الفرنسيون الذين رفضوا فلسفة ديكارت اعتقدوا - كما فعل علماء عظماء العصر - بأن الطريقة الوحيدة التي يمكن للبشر الحصول على المعرفة من خلالها هي التجربة. جاليليو على سبيل المثال عرف أن أقمار كوكب المشتري موجودة لأنه نظر إليها من خلال تلسكوبه، فكان لا يتخذها من معتقد، كما أنه لم يكتشف وجودها من خلال التفكير المنطقي. فهذا الاعتقاد بأن التجربة هي أساس المعرفة كان يسمى بالتجريبية empiricism، حيث كانت وجهة النظر التي ازدهرت خلال القرنين 17 و 18 ليس فقط في فرنسا ولكن أيضاً في بريطانيا العظمى. وهذه الحركة دعت بالتجريبية البريطانية، وعلى الرغم من رفض بعض الاستنتاجات المادية بصورة جذرية إلى حد بعيد بشأن نظيرتها الفرنسية، إلا أنها وضعت قسطاً كبيراً على التجربة. وكانت أول هذه الشخصيات العظيمة من هذه المدرسة هو جون لوك John Locke الذي قدم استعارة العقل غير المشكل بلاملامح tabula rasa، وهي الفكرة بأن كل واحد منا يولد مثل الورقة البيضاء وأن كل ما نحن عليه هو نتيجة التجارب التي اكتسبت من تفاعلنا مع البيئة، فنتقش علينا. وكان الشكل الأكثر تطرفاً من التجريبية لديفيد هيوم David Hume الذي رفض مفهوم الروح تماماً، بحجة أن ما نسميه الروح (والذي يمكن أن يصف اليوم بالنفس) ليس سوى مجموعة عابرة ومتغيرة باستمرار من تأثيرات الحس والأفكار البسيطة.

فالأساس الجوهري لما نفعله من بعض الأشياء وتجنب القيام ببعض الآخر، يبرهن بأنه يكمن في تجربتنا من عواقب سلوكنا. وبهذه الطريقة عاد نهج المتعة hedonic approach إلى تيار الدوافع البشرية بعد منفي طويل. وما إن عاد مارس نفوذاً قوياً على تطور علم النفس، وأجداً تعبيراً حديثاً في قانون التأثير Law of Effect لثورنديك Thorndike (المبدأ بأن النتائج الممتعة تعزز السلوك في حين المؤلم منها يخمد)، وبالتالي فإن مبدأ المتعة هو الأساس لتلك النظريات السلوكية التي تفسر السلوك من حيث احتمالات الثواب والعقاب.

فمجيء المادية ومذهب المتعة لا يعنى زوال النهج الطوعي voluntarist approach التقليدي للدافع. فقد كانت التجريبية الراديكالية لهيوم والافتراضات عن الروح التي ميزتها، كانت الأهداف الرئيسية للفيلسوف الألماني إيمانويل كانط. ففي حجة أن الروح ليست أكثر من اسم نعطيه لأحاسيس عابرة وغير دائمة، ونفى هيوم وجود أى وعى مركزي، وهذا هو العقل الذي يتجاوز الخبرة الفورية. ولأسباب لا حاجة لذكرها هنا، رفض كانط هذه الفكرة، واقترح بدلاً منها بأن كل شخص يمتلك نفساً متماسية ورئيسية قادرة على الفهم وعلى التصرف وفقاً للضرورات الأخلاقية، وهذا هو ما يجعلها بطوعية تقوم بخيارات سلوكية.

### - القرن التاسع عشر The 19th Century :

على الرغم من أن بعض علماء القرن 19 اتبعوا النهج المادي للسلوك الإنساني الذي دعا إليه صاحب المذهب الميكانيكي الفرنسي (مثال الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر)، في حين واصل معظم الناس في تلك الفترة الاعتقاد بأن السلوك إلى

(1) (1709 - 1751) كان طبيباً فرنسياً وفيلسوفاً، وأحد أقدم الماديين الفرنسيين في عصر التنوير.  
[https://en.wikipedia.org/wiki/Julien\\_Offray\\_de\\_La\\_Mettrie](https://en.wikipedia.org/wiki/Julien_Offray_de_La_Mettrie)

حد كبير عقلاني و تحت سيطرة واعية. التحديان على الاعتقاد الشائع نشأ في النصف الأخير من هذا القرن، ومع ذلك كان لكل منهما تأثيرات هامة على علم النفس الدافع. إحدى التحديين جاء من المفهوم النامي ببطء من اللاوعي *unconscious* ، ففك الفكرة لها تاريخ طويل وقد أصبحت بارزة في ظل تطورات دراسة استخدام التنويم المغناطيسي بواسطة أطباء فرنسيين مثل جون مارتا شاركو *Jean-Martin Charcot* و ايبوليت بيرنايم *Hippolyte Bernheim* (ألنبردجر *Ellenberger*، ١٩٧٠)، الأهتمام في اللاوعي تُوّج في عمل سيجموند فرويد، الذي قدمت نظريته عن التحليل النفسي نسخة جديدة من المادية. فيها عيّن فرويد دوافع السلوك البشري إلى محركات لاواعية وعميقة والاحتياجات. مثل التجريبيين الراديكاليين في القرن ١٨، سلم بأن العقل الواعي لا دور له ، وذكر بدلا من ذلك أن "الأسباب" التي نستشعرها لأعمالنا ليست أسبابا على الإطلاق، بل مجرد عقلنة بعد وقوع الحدث.

وكان التطور الآخر الذي اعترض الافتراضات في القرن ١٩ حول الدافع نظرية تشارلز داروين في التطور *evolution* . حيث الفكرة الأساسية للتطور نشأت من أن الكائنات الحية تتطور من الأقل والأبسط إلى الأشكال الأعلى والأكثر تعقيدا – التي كانت موجودة منذ أيام أوائل الفلاسفة اليونانيين. وكانت مساهمة داروين في المفهوم هو شرحه للتطور في مصطلحات كانت تماما بيولوجية وعلى نحو محض بالتوافق مع القانون الطبيعي. وفي القيام بذلك استبعد أي فكرة عن الهدف في التطور، فالتطور هو عملية تنافسية، الأنواع لا تتطور وفقا لبعض التصميم الكبيرة، ولكن لأن الأعضاء الأقوى والأكثر قدرة على التكيف من الأنواع تبقى وتكاثر، في حين الأعضاء الأضعف تهلك.

ما جلبه كل من فرويد وداروين لفكرة الدافع الأنساني كان مفهوم الغريزة *instinct*، وبواسطته تلاشت القدرة على التمييز بين البشر والحيوانات الدنيا، داروين *Darwin* (١٨٥٩) فتح الباب لدراسة الغرائز في البشر. حيث كان يفترض عموما حتى ذلك الحين أن الغرائز مقيدة بالأشكال الحيوانية دون الأدمية، وفي النظام التطوري، مع ذلك، أعطى معنى بسيطا لتصور أن امتلاك الغرائز قد تتوقف مع القردة العليا. فرويد أيضا بنى الغريزة في نظريته كنتيجة طبيعية لتسلسل فكرة محركات اللاوعي (فرويد *Freud*، ١٩١٥، ١٩٢٠). ففي أوائل القرن ٢٠ فكرة غريزة الإنسان كانت مقبولة على نطاق واسع، والعديد من علماء النفس وضعوا قوائم طويلة من الحالات الغريزية المحددة، فعلى سبيل المثال وليام جيمس *William James* (١٨٩٠)، الذي كانت قائمته الأقصر من معظم القوائم شاملة غرائز مثل المشاكسة، التعاطف، الأكتسابية (الولع بالاختناء)، الفضول، التواضع، والحب، هذه المصطلحات لم تستخدم كما نستخدّمها نحن اليوم لمجرد وصف السلوك البشري، بل كانت ذريعة كأسباب فعلية للسلوك.

وقد كان لنظريات الغريزة نوعان شاملان، أحدها وصف ببساطة مجموعة من السلوك المتفاوت التعقيد المشابه لردود الفعل المنعكسة. أما وجهة النظر الأخرى عن الغريزة كانت مختلفة كثيرا، التي دعا إليها بشكل رئيسي عالم النفس الإنجليزي ويليام ماكدوجال *William McDougall* (١٩٠٨)، هذه النظرية حددت الغريزة من حيث إنها مجموعة فطرية من العواطف التي يتم تفعيلها من خلال مجموعة واسعة من الظروف في البيئة. العاطفة المركزية بمجرد تنشيطها تثير بعض الإشارات الداخلية التي تدفع نوعا معينا من الاستجابة على سبيل المثال ناقش ماكدوجال بعض الظروف في بيئتنا - فالعدد الفعلي ومداهما يعتمد إلى حد كبير على الخبرات السابقة للشخص- كالتى تثير حالة عاطفية من الخوف. فنهج ماكدوجال للغريزة تحفيزي؛ العاطفة المركزية تُأسس ما سماه ماكدوجال حالة من السعي *striving* للوصول إلى بعض الأهداف، في مثالنا كان الهدف الاطمئنان، وكل عاطفة لديها غاية لتحقيق بعض هذه الأهداف.

نظرية الغريزة لم تستطع البقاء لصعود علم النفس السلوكي، ففي عام ١٩٢٠ كان علماء السلوك لديهم صعوبة إنهاء علم نفس الغرائز البشرية، ومن خلال القيام بذلك، فتحوا الباب أمام صعود مفهوم جديد: الدافع.<sup>(١)</sup>

- **ومن هنا نجد (١)** إن بناء الدافع يشير إلى البدء والقوة، والإصرار على السلوك، فهو يعالج مسألة لماذا الناس يفعلون الأشياء التي يقومون بها؟ حيث إن الدافع يترسخ ضمن عملية معقدة تتكون من اختيار الهدف، ووضع استراتيجية للوصول إلى الهدف، وتنفيذ المسار المخطط للعمل. هذه العملية تتضمن أيضا عملية من المتغيرات المعرفية والوجدانية. فالأهداف التي اختيرت للعمل تتم بقدر أراضائها إما للاحتياجات الشخصية أو المطالب الظرفية.

(٢) أغلب الدوافع الإنسانية تتم في أوساط اجتماعية، بغض النظر سواء كان الشخص فعلا في مجموعة يعمل ضد المجموعة، أو معزولا عن مجموعة، معظم الدوافع الإنسانية وراء ذلك هي في طبيعتها اجتماعية.

(٣) على نطاق واسع فإن مفهوم الدافع يمكن إرجاعه إلى العصور الكلاسيكية القديمة، حيث تم العثور عليه في مذاهب كالمذهب المتعة *hedonism* وكبت الغرائز *Stoicism*، فمذهب المتعة احتفظ بالعرض من العمل وهو السعي وراء اللذة وتجنب الألم، ومع مرور العصر الكلاسيكي وهيمنة الكنيسة المسيحية أصبحت النظرية الأرثوذكسية للدافع الطوعية *voluntarism* . ووفقا لوجهة النظر هذه التي هيمنت على التفكير لأكثر من ألف سنة وضعت جميع التصرفات تحت سيطرة الإرادة، فالجسم تابع للروح، و السعي للمتعة حُمّل ليكون إثماً.

(١) مرجع سابق ص. ٥، ١٣

٤) نهج المتعة الكلاسيكية للدافع عاد ظهوره في بداية العصر الحديث في فلسفة القرن ١٧. ففي كل من التجريبيين البريطانيين والماديين فيما بعد ديكرات في فرنسا عقدوا على أن العمل الإنساني بدافع البحث عن المتعة. أما المثاليون الألمان فاتبعوا كانط وحافظوا على النهج الطوعي.

٥) نحو نهاية القرن ١٩ مفهوم الدوافع اللاوعية انبثق من كل من نظرية النشوء والارتقاء لداروين ونهج التحليل النفسي لفرويد. وتحت تأثير هذه الآراء اعتمد علم النفس مفهوم الغرائز البشرية الذي خدم غرض نظرية الدافع لسنوات عديدة، إلا أن نظرية الغريزة دحضت من علماء السلوك في عام ١٩٢٠، ولكن العديد من توابع الغرائز عاد ظهوره بمفهوم أحدث للمحرك في ١٩٢٠ و ١٩٣٠.

٦) نظرية المحرك تقوم على الاستعارة، بأن تصرف الإنسان يشبه الآلة التي تتفاعل من خلال تأثيرات خارجية، وعلى هذا النحو هي واحدة من قائمة طويلة من الاستعارات التي استخدمت لشرح الوعي والسلوك البشرى منذ العصور الكلاسيكية، وتاريخ مفهوم الدافع هو تاريخ الاستعارات التي استخدمت لوصف ذلك.

٧) هناك نظرية توضح الدافع من حيث التوقع والقيمة التي تتعلق باستعارة أخرى: وهي التوازن البيولوجي *biological homeostasis*. هذه النظرية تفترض أن أطر الأهداف تضع محركات للتصرف، فالرأى يفترض أن الفرد هو مدفوع للحد من وجود تباين بين حالته الحاضرة وحالته المنشودة التي يمثلها الهدف. هذا النموذج أصبح الأساس لمزيد من التصورات الحديثة للدافع التي تعتمد على التناقضات بين الظروف الحالية والمثالية<sup>(١)</sup>.

### سيطرة النشاط في الدافع action control in motivation :

أن تكون قادراً على تحديد أهداف الشخص يمكن أن يساعدنا على معرفة ما سلوك الشخص الأكثر احتمالاً والمتعلق بتلك الأهداف. وفي النهاية، فإن كل ما نحصل عليه من هذه المعلومات هو فهم معتقدات الشخص، ومشاعره، ودرجة التزامه بالهدف، لمعرفة كيف أن الشخص يتخطى فعلياً الالتزام وينفذ السلوك اللازم لتحقيق هذا الهدف الذي يتطلب فهم بعض المفاهيم والعمليات الأخرى.

وسوف يكون اهتمامنا طبيعة النشاط الذي نشأ بواسطة الالتزام لتحقيق الهدف، وأول هذه المفاهيم هو *discrepancy* التناقض بين حالة الأشياء كما هي والحالة المنشودة التي يمثلها الهدف. المفهوم الآخر الذي سيتم تقديمه هو الإرادة *will* التي تصف القدرات البشرية للانخراط في سلوك واع وهادف، وأحياناً في مواجهة الصعوبة الكبيرة. وكلا من المفهومين يندمجان في النشاط المدفوع بدافع، وهو الالتزام *commitment* لتحقيق الهدف الذي يخلق وجود تباين بين حالة الشخص الحالي والحالة المرغوب فيها، هذا التناقض يتم إزالته من خلال النشاط الهادف والمتعمد<sup>(٢)</sup>.

رد فعل الناس تجاه هذه التناقضات إما عن طريق محاولة القضاء نهائياً على سبب الحالة الراهنة أو عن طريق التكيف معها، وبالتالي يخلق حالة مستقرة جديدة أقرب إلى الحالة التي سببها الظروف.

الملحق المحدد لمبدأ التوازن *homeostasis* إلى الدافع الاجتماعي قد وضعه ستاجنر *stagner* (١٩٧٧)، الذي اقترح أن وجود تباين بين الحالة القائمة والحالة المستقرة المفضلة ينشط نظام الاستثارة الذي هو مشترك بين جميع الدوافع. فهي بيولوجية في الأصل تنطوي على تفعيل الجهاز العصبي. بدء النشاط في نظام الاستثارة هو تلقائي فسيولوجي وغير مُعلم، على أن ستاجنر *Stagner* (١٩٧٧) اقترح أنه من خلال الخبرة والتعلم تربط الاختلافات الأخرى ذات الطابع غير البيولوجي مع تلك البيولوجية الأصلية. "وهذا يعني" أن *Stagner* استنتج أن "النظام يُفعل في الأصل من اختلاف العمليات الكيميائية التي يمكن أن تكون بعد التعلم الذي يسببه الاختلافات الاجتماعية". بهذه الطريقة وجود تباين اجتماعي محض مثل الذي ينشأ من الهدف الاجتماعي يمكن أن يأتي لحدث نشاط في نظام الاستثارة. والنتيجة النهائية هي الجهد الذي يبذله الشخص في النشاط من أجل نتائج ذات صلة اجتماعياً<sup>(٣)</sup>.

مع مرور الوقت بيد أن بدأت هذه النماذج البيولوجية تخسر شعبيتها؛ فمفهوم الاستثارة نفسه وجد أنه غير كافي لشرح الأنشطة المعقدة للنظم الفسيولوجية المتنوعة في الجسم. وارتبط تراجع الاستعارة التوازنية البيولوجية أيضاً مع تزايد الاهتمام بدور الإدراك في السلوك محفزاً جزء كبير من النماذج النظرية لمعالجة المعلومات والذكاء الاصطناعي (جاردنر، ١٩٨٥)<sup>(٤)</sup>.

هناك نموذج عمل بسيط يمكن أن يستخدم لتحليل الدوافع الاجتماعية بشكل عام والإرادة، فهو يحتوي على ستة فئات عامة من العمل تبدأ بالتفكير والتأني في تحديد الهدف الأهم، وتنتهي مع بلوغ الهدف أو مع الاستجابة لعدم التحقيق، وفي هذه الحالة

(١) مرجع سابق ص. ٢٠، ٢١

(٢) مرجع سابق ص. ٤٨، ٤٩

(٣) مرجع سابق ص. ٥٠، ٥١

(٤) مرجع سابق ص. ٥٢

تدور العملية إلى الوراء للمرحلة الأولى. فالمرحلة الأربعة التي تقع بين هذه النقاط النهائية هي : (١) النية، (٢) النشاط ، (٣) المقارنة، و (٤) الإسناد.<sup>(١)</sup>

فعدم إحراز تقدم مرضى نحو الهدف قد يؤدي إلى زيادة في التأثير السلبي، لدرجة أن مثل هذه الحالة الوجدانية تحدث وتأثيرها الرئيسي هو على الأراجح تسهيل العمليات التي تجربها كنتيجة للبحث المنسوب (تقييم للحالة). وبالتالي فهو إما رفض، أو تغيير في الاستراتيجية، أو زيادة الجهد كوسيلة يختارها الشخص للحد من التباين بين الهدف والحالة القائمة، هذا مسار النشاط المعين سيتم دفعه على امتداد التأثير السلبي القوي.<sup>(٢)</sup>

### مكان الإرادة في الدافع:

على افتراض أن الناس ممارسون السيطرة الإرادية على تصرفاتهم في السعي للوصول إلى الأهداف فإن الإرادة مرة أخرى ضمنا في الكثير مما قيل تحد من وجود تباين بين الحالة الراهنة والحالة المرغوبة التي عادةً يعتقد فيها كأمري يتطلب العزم وبذل متعمد للجهد.

المشكلة ما تعنيه الإرادة في علم النفس القديم، في نظرية القيمة المتوقعة التقليدية تميل إلى الافتراض أنه بمجرد أن الشخص قد شكل هدفاً ولديه بعض الحوافز للوصول إليه، فإنه سوف يتخذ الإجراءات اللازمة للقيام بهذه المهمة، فالإرادة تندرج عادة تحت مفاهيم أخرى مثل الالتزام.

### مراحل النشاط:

عن طريق إلقاء التمييز بين الإرادة والعمليات التي تسبقها مثل القرار والالتزام سوف يقدم علماء النفس الإرادة كجزء من عملية أوسع نطاقاً تبدأ في مراحل مبكرة من تحديد الأهداف و تنتهي إما بالنجاح أو الفشل في الوصول إلى الهدف، حيث يمكن العثور على عرض العملية كاملة في النظرية التي اقترحها هكوسن Heckhausen وجولوتسر Gollwitzer (١٩٨٧، Gollwitzer، ١٩٩٠) هذه النظرية توضح مخططاً على أربع مراحل بدءاً بمرحلة قبل القرار predecisional ويليهما في تسلسل مابعد القرار postdecisional ثم قبل النشاط (preactional)، النشاط actional، ومرحلة بعد النشاط postactional.<sup>(٣)</sup>

إذا كانت المهمة صعبة ويشعر الشخص شعوراً من السيطرة على نتيجة النشاط ، فمن ثم الشخص قد يتبنى توجه النشاط *action orientation*، وهذه حالة ذهنية تتميز بالتركيز على البدائل المختلفة للنشاط التي لدى الشخص، والإعداد إلى ممارسة واحدة أو أكثر منها، فالشخص الذي اتجاهاه نشاطي يتجنب الاهتمام أو معالجة المعلومات التي لا تتعلق بالعمل من أجل تحقيق الهدف وبدلاً من ذلك يعالج المعلومات المتعلقة بشكل أساسي بالهدف.

ففي سياق السلوك اليومي يتناوب الناس بين توجهات النشاط والحالة (كوهل kuhl ، ١٩٨٤). ومع ذلك، هناك فروق فردية في التوازن النسبي بين الحالتين، فبعض الناس تميل إلى أن تكون موجهة نحو النشاط أكثر الوقت وغيرهم تكون في توجه الحالة *state orientation* (توجه الحالة هي معادية للعمل وتعمل ضدها)، وهكذا يتم تحديد توجهات النشاط والحالة من خلال كل من المتغيرات الظرفية والشخصية.

كما لوحظ أن الناس الذين يتبنون توجه النشاط يستخدمون ثلاث استراتيجيات لتنفيذ نواياهم: الاهتمام الانتقائي selective attention، والمعالجة processing، والسيطرة العاطفة emotion control.<sup>(٤)</sup>

لماذا نوايانا في بعض الأوقات تبدو مترددة وضعيفة قبل أن ننفذها بنجاح؟ الإجابة بالطبع هي أن في كثير من الأحيان لم يكن لدينا هدف واحد واضح في الاعتبار، ولكن بدلاً من ذلك يتم التفكير في عدد من الأهداف التي قد تكون إلى حد ما قريبة من بعضها البعض في الأهمية، في مثل هذه الحالات يكون صراع الهدف احتمال قوي ، والسعي لتحقيق هدف واحد قد يضعفه في نهاية المطاف عند تفكير المرء بالبدائل.<sup>(٥)</sup>

- (١) ومن هنا نجد هناك نماذج حديثة من الدافع تستند إلى مفهوم الاختلاف ، تصف العملية بأنها تبدأ مع (١) تشكيل النية للسعي للهدف المختار ووضع استراتيجية لتنفيذ تلك النية، (٢) اتخاذ إجراءات محددة تهدف إلى تحقيق الهدف، (٣) المقارنة بين نتيجة الإجراءات وحالة الهدف من أجل الكشف عن أي تناقض، و (٤) إسناد السبب لأي تعارض يتم الكشف عنه، واعتماداً على الإسناد، يزيد الشخص من كمية الجهد المبذول، يغير الاستراتيجية أو النية، أو ينفي التناقض.
- (٢) مجرد وجود حافز للسعي من أجل تحقيق الهدف لا يضمن أن الشخص سوف يقوم فعلاً بالجهد الذي هو مطلوب، فالسعي للهدف يتطلب أيضاً عملاً من أعمال الإرادة التي تأتي بعد الالتزام. فالإرادة تتجلى في الجهد الواعي إذا تم استيفاء شرطين:

(١) مرجع سابق ص ٥٥

(٢) مرجع سابق ص ٥٧

(٣) مرجع سابق ص ٥٨ ، ٥٩

(٤) مرجع سابق ص ٦٢ ، ٦٤

(٥) مرجع سابق ص ٦٧

(١) المهمة يجب أن تكون صعبة بما فيه الكفاية لأن السلوك بلا جهد لن يؤدي إلى تحقيق الهدف ، و (٢) يجب على الشخص أن يعتقد أنه لديه السيطرة الكافية على النتيجة المؤكدة من الوصول إلى الهدف مع الجهد المطلوب.

(٣) السعي لتحقيق الهدف يتطلب أيضا أن يعتمد الشخص إجراء توجه النشاط ، الذي فيه الحالة الذهنية تتميز بتركيز الاهتمام على الهدف ووجود مستوى عال من السيطرة على العواطف، أما توجه الحالة من ناحية أخرى هو تحول الانتباه بعيدا عن الهدف، ونحو أفكار الشخص ومشاعره. فاعتماد توجه الحالة معاد لتوجه النشاط لتحقيق الهدف ويميل إلى إضعافه، ونجد توجهات النشاط والحالة أيضا ترجع جزئيا إلى الفروق الفردية الثابتة في الميل إلى الاعتماد لواحدة أو أخرى من هذه التصرفات. (١)

### **(العاطفة Emotion):-**

(١) واحدة من أقدم القضايا في دراسة العاطفة هي ما إذا كانت العاطفة هي من تأثير عمليات في الدماغ أو من عمليات في الجسم محيطية. نظرية جيمس-لانج James- Lange تعرف العاطفة كتصور من التغيرات في الحالات الجسدية التي يشارك فيها الجهاز العضلي الهيكلي والجهاز العصبي اللاإرادي. في انتقاد نظرية جيمس -لانج، اقترح كانون Cannon بأن المشاعر العاطفية تنشأ في المهاد والتعبير العاطفي في منطقة ما تحت المهاد (الدماغ).

(٢) تستند النظريات العاطفية إلى استدلالات من ثلاثة أنواع من الظواهر الملحوظة : تقارير موضوع الخبرات ، السلوك الحركي المعبر في العضلات الكبيرة وفي الوجه، والنشاط الفسيولوجي .إلى حد كبير، نظريات العاطفة تسعى إلى تفسير العلاقات بين تلك الظواهر الثلاثة.

(٣) **نظرية الاستثارة - الإدراك cognition-arousal theory** أساس النظرية أنها تسعى إلى الربط مع المكون التفعيل اللاإرادي مع الإسهاد الإدراكي فيما تدل عليه هذه الحالة اللاإرادية ، وتوضح تلك المشاعر نتيجة لذلك الإسهاد. (٢)

فعند شاشتر Schachter وسنجر Singer أن نظرية الاستثارة - الإدراك مشابهة لنظرية جيمس لانج حيث إنها تربط ما بين العاطفة كرد فعل من أجهزة تنقوى من الجهاز العصبي اللاإرادي. وخلافا للنظرية السابقة، فإن نهج شاشتر وسنجر توضح رد الفعل بأنه استثارة معقدة وغير متميزة يتم وصفها بأنها عاطفة محددة من حيث الإدراك المتاح حول البيئة المباشرة، وقد تم اختبار هذه النظرية من قبل العديد من التجارب التي تنطوي على إسهاد خاطئ لإثارة للمؤثرات غير عاطفية، على الرغم من أن بعض هذه الدراسات دعمت هذه النظرية، والبعض الآخر لم يدعمها.

(٤) وتستند نظريات النفسية التطورية Psychoevolutionary إلى العاطفة على افتراض بأن العواطف الأساسية كانت جزءا من أنماط أكبر من السلوك التكيفي الذي انتقل عن طريق الانتقاء الطبيعي. هذه العواطف الأساسية هي النواة المركزية التي منها قد تم بناء غيرها من المشاعر. والتي تركز في العمليات البيولوجية، بحيث تكون كل المشاعر الأساسية تتضمن نمطا معيناً من النشاط الفسيولوجي ونمطا معيناً من السلوك الحركي التعبيري.

(٥) فرضية ردود فعل الوجه على الأقل تعزو إلى بعض من تجربة العاطفة إلى العمليات التي تربط عضلات الوجه والأوعية الدموية إلى الدماغ. وقد أظهرت أدلة متسقة مع الفرضية أن تعبير الوجه يظهر ارتباطه مع تأثير المشاعر الايجابية ومقابلها السلبي، ما يولد من مشاعر معينة عن طريق الوجه لا يزال مفتوحا للتساؤل. نظريات ردود فعل الوجه هي نوعان: تلك التي تفترض أن العمليات المعرفية تتدخل وتلك التي تحدد الروابط الفسيولوجية، مثل فرضية Zajonc بأن درجة الحرارة في إمدادات الدم إلى الدماغ تتوسط في التجارب العاطفية.

(٦) ليفينثال Leventhal يصف في نظرية محرك الإدراك الحسي **perceptual-motor theory** العاطفة كتجربة يتم بناؤها من خبرات محرك حسي أساسية وذاكرة طويلة الأجل تنمو من تلك التجارب. العواطف يتم تمييزها على أساس معالجة المحرك الحسي، والإدراك يلعب دورا مهما في هذه النظرية في تفصيل التجربة العاطفية من خلال الذاكرة التخطيطية والمفاهيمية ، ولكنها ليست ضرورية للتجربة الأولية.

ففي البداية هذه الذكريات تقتصر على واقعات متفردة ومحددة، ولكن مع التجارب المتكررة لهذه الذكريات، فإنها تتجمع في تجارب نموذجية أو تخطيطية. فعلى سبيل المثال النظر إلى والدتها في البداية يثير في ذاكرة الطفلة بعض المناسبات الماضية المحببة التي عاشتها ، ولكن بمرور العديد من هذه المناسبات فإن ظهور الأم يطلق شعورا معما من المودة، وأخيرا فالمعاجة التخطيطية تقود الطريق إلى مستوى لا يزال أعلى من المعالجة المفاهيمية. (٣)

(٧) **نظرية لازاروس Lazarus** ورفاقه (نظرية التقييم الإدراكي **cognitive appraisal theory** ) هي أكثر إدراكية بثبات في جميع وجهات النظر الحديث، ففي هذه النظرية العاطفة جزء من التعاملات المستمرة للبيئة التي تتم داخل الشخص

(١) مرجع سابق ص ٧٣ ، ٧٤

(٢) مرجع سابق ص ٧٣ ، ٧٤

(٣) مرجع سابق ص ٢١٢

حيث الشخص بها يقيم باستمرار تقييما لكل من البيئة وعلاقته بها فالفرد ليس متلقيا سلبيا للتحفيز ولكن وكيلا نشطا وبناء يتعامل مع التغييرات الظرفية ويؤثر على المشاعر التي تثير تلك التغييرات.<sup>(١)</sup>

فعندما يقود التقييم الأولى لاستنتاج أن الوضع متوتر، فمن ثم يتم إجراء تقييم ثانوى عن طريق الشخص الذى يقوم بتوافر الموارد للتعامل مع الضغط. وهذا يأخذ عادة أحد الشكليين فى التعامل القائم على حل المشاكل *problem-based coping* وفيه يركز الشخص طاقاته للقضاء على مصدر التوتر، وبهذا يتخذ النهج المحورى للمشكلة أما فى التأقلم داخل النفس *intrapsychic coping* يركز الشخص انتباهه ليس على المشكلة، ولكن على الاستجابة العاطفية الخاصة به نحو المشكلة، ويمكن أن تشمل على تغيير الذات من أجل التكيف مع هذا الحدث المتوتر، أو قد تنطوى على انسحاب شخصى من الوضع عن طريق الكبح وإنكار المشكلة. وقد نلاحظ التشابه بين نوعى لازاروس لاستجابات التأقلم وبين بنيات كوهل لتوجهات النشاط والحالة.<sup>(٢)</sup>

(١) مرجع سابق ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧

(٢) RUSSELL G. GEEN ,Human Motivation, A Social Psychological Approach, University of Missouri, BROOKS/COLE PUBLISHING COMPANY ,PACIFIC GROVE, CALIFORNIA,p 214

## التفكير الإبداعي

### مفاهيم الإبداع:

اختلف علماء النفس في تعريفهم للإبداع وهذا الاختلاف يأتي من خلال الأطر النظرية التي ينتمون إليها وينطلقون منها لتأصيل الفكر الإبداعي.

فعدت تصفح للأفكار والنظريات الإبداعية نجد أن بعض من علماء النفس ينظرون إلى الإبداع عملية عقلية وبعض منهم ينظر للإبداع على أنه إنتاج ومنهم من عرف الإبداع بمجموعة من السمات الشخصية.

وأختلف علماء النفس في دراستهم للإبداع، بعض من هؤلاء العلماء اهتمم بالإبداع لدى الأطفال والآخر اهتمم بالإبداع لدى الراشدين.

### أ- تعريف الإبداع باعتباره قدرة عقلية:-

أول من ألقى الضوء على الإبداع هو سيرمان (١٩٣١) من خلال كتاب نشره بعنوان العقل المبدع (creative mind) والإبداع عبارة عن القدرة العقلية التي تخلق سياق جديد من العلاقات وذلك من خلال تحويل وتعديل الموقف بحيث يؤدي أي ظهور علاقات جديدة.

ويرى العديد من العلماء النفس مثل "بارون"، "فروم"، "شاكينيل"، "ووالسن" أن الإبداع عبارة عن قدرة الفرد على تقديم أشياء جديدة من خلال سياقات موجودة. وتتضمن هذه القدرة على إنتاج الاستجابات وتفردتها.

وفي ضوء نظرية جليفورد للتنظيم العقلي ينظر إلى الإبداع على أنه نوع من التفكير التباعدى وقد أمكن رصد القدرات العقلية التي تكون الإبداع وهي موضحة في الجدول (١)، السيد، (١٩٧١).

### جدول (١) قدرات التفكير الإبداعي

القدرة	
١- الحساسية للمشكلات	يظهر عامل الحساسية للمشكلات من خلال وعى المبدع بالحاجة إلى التغيير أو إلى حيل جديدة أو في شكل وعى بعيوب في الأشياء. وعموماً يوجد عامل إدراكي عام للحساسية للمشكلات الذي يظهر من خلال رؤية العيوب والنقائص في خبرات الحياة اليومية.
٢- الطلاقة	تعبر تلك القدرة عن إمكانية الفرد في أن ينتج عدداً كبيراً من الأفكار خلال وحدة زمنية معينة. ويمكن التعبير عن هذه القدرة من خلال العوامل الفرعية الآتية: أ- <b>طلاقة الكلمات</b> : وهي عبارة عن سرعة إنتاج كلمات وفق لمستلزمات بنائية محددة. ب- <b>طلاقة التداعى</b> : وهي عبارة عن سرعة إنتاج كلمات مع توافر خصائص محددة في المعنى. ج- <b>طلاقة الأفكار</b> : وهي عبارة عن سرعة إيجاد عدد كبير من الأفكار في أحد المواقف، بغض النظر عن نوع التحديدات أو القيود.
٣- المرونة	وتعبر هذه القدرة عن درجة السهولة التي يغير بها الفرد حالته النفسية أو الوجهة العقلية بصورة معينة. وتنقسم المرونة إلى نمطين هما: أ- <b>المرونة التكيفية</b> : ويتصل هذا العامل بتغيير الفرد لوجهته الذهنية لمواجهة مستلزمات جديدة تفرضاها المشكلات المتغيرة. ب- <b>المرونة التلقائية</b> : ويتصل هذا العامل بحرية تغيير الوجهة الذهنية فيما يتصل بمشكلة محددة تحديداً ضيقاً.
٤- الأصالة	تعتبر القدرة على إنتاج أفكار جديدة وطريقة عنصراً أساسياً في التفكير الإبداعي. والفكرة الأصلية التي تكون جديدة ولها أقل تكرار في استجابات الأفراد وهي تكون نادرة.
٥- التحليل	تعبر هذه القدرة على تفتيت الأشياء إلى أجزاء بسيطة أو تفتيت مركبات قائمة بالفعل وتحويلها إلى وحدات أبسط منها لكي يعاد تنظيمها.

٦- التآلف	تعتبر هذه القدرة على تنظيم الأجزاء في كل متكامل ويسعى المبدع أن يحتفظ في ذهنه بعدة متغيرات وأن يتصرف فيها وذلك أثناء محاولته أن يجد الحل لمشكلة ما.
٧- إعادة التحليل	ويعنى بإعادة التحليل إعادة التنظيم بحيث تنتظم مجموعة من أجزاء الموقف وتتكامل من خلال السلوك الإستبصارى.
٨- النفاذ	ويعنى بالنفاذ تحديد نتائج ما يترتب على بعض ظروف الحياة مثل: ماذا يحدث لو لم يعد من الضروري أن يأكل الإنسان؟ والنفاذ يعنى النتائج بعيدة فى المكان والزمان، أو فى سلسلة العلاقات السببية والنفاذ يعنى بقدرة الفرد على رؤية ما يتجاوزها هو واضح ومباشر.
٩- التقويم	لكي تكون القدرات الإبداعية فعالة ينبغى أن تصاحبها ممارسة لنوع من النقد الذاتى أو الحكم أو التقويم . وعرف جليفرود التقويم بأنه وعى بإتقان شئ معين أو موقف أو نتيجة أو إبداع، مع معيار أو محك الملائمة أو الجودة.

### ب- تعريف الإبداع باعتباره عملية عقلية:-

يرى تورانس أن الإبداع يمكن النظر إليه على أنه عملية عقلية، وقد عرفها بأنه عملية الإحساس بالمشكلات والصعوبات والعناصر المفقودة فى المعلومات مع وضع التخمينات أو صياغة الفروض فيما يتعلق بهذه النقائص ثم اختبار هذه التخمينات وربما تعديلها وإعادة اختبارها وفى النهاية توصل النتائج للآخرين.

ويرى "موراي" أن الإبداع هو العملية التى ينتج عنها تركيبة جديدة وذات قيمة. والإبداع فى هذا التصور يعتبر عملية ينتج عنها عمل جديد يتقبله المجتمع وهو بهذا يعتبر الإبداع نسبي من مجتمع لآخر. والإبداع هو عملية تحقيق الذات وان الدافع إليها هو حفز الفرد لأن يحقق ذاته. ويمكن اعتباره الميل إلى التعبير عن قدرات الفرد القصوى. والإبداع يعنى انبثاق أو توليد علاقة جديدة بين الفرد والبيئة التى يكون فيها أشخاص ومواقف من ناحية أخرى.

ويرى بعض من علماء النفس أن الإبداع عملية تكوين أو صياغة العناصر المترابطة والمتباعدة فى تركيبات أو صيغ جديدة. وكلما كانت العناصر متباعدة كانت عملية الصياغة لهذه العناصر أكثر إبداعاً.

### ج- تعريف الإبداع بوصفه إنتاجاً :-

يرى "ويسلون" أن الإبداع عملية إنتاج شئ جديد مثل فكرة جديدة أو موضوع معين. والإبداع يؤدي إلى ظهور منتجات جديدة وفريدة من نوعها. ويرى "ماكينو" أن التفكير الإبداعي يتضمن استجابة أو فكرة جديدة أو على الأقل فكرة نادرة. والإبداع عملية تمتد خلال فترة من الوقت التى يتميز بالأصالة والتحقق.

والإبداع يركز على النوع والجدة. ويظهر الإبداع من خلال الأعمال الفنية مثل أعمال الأديب نجيب محفوظ أو أعمال "بيكاسو" أن تحديد العمل الإبداعي يحتاج إلى الكثير من المعايير للكشف عن النتائج وهل هو ينتمى للعمل الإبداعي أم لا؟

ويؤكد "جانبيه" أن الإبداع العلمى أو الفنى ما هو الا نشاط يقوم به الفرد لحل مشكلة معينة من خلال استخدام ومضة الاستبصار وبالرغم من اشتغال تفكيره بالمشكلة لبعض الوقت. وتعتمد هذه الأعمال الإبداعية باعتباره سلوكاً لحل مشكلة معينة عن مقدار كبير من المعرفة المكتسبة من قبل، سواء كانت هذه المعرفة من النوع العام المعروف فى مجال العلم أو من النوع الخاص المعروف لدى الفنان المبدع.

ويرى "جانبيه" أن العمل الإبداعي يتطلب أن يكون لدى الفرد معرفة سابقة بالمبادئ التى يشتمل عليها الموقف. ومع ذلك يرى أن الاكتشاف العظيم على عكس أنواع الاكتشافات العادية يشتمل على نوع من التعميم يذهب بعيداً خلف ما يمكن توقعه فى موقف التعلم العادى.

هذا النوع من التعميم عبارة عن وثبة استقرائية تتجمع فيها الأفكار التى تأتى من أنظمة معرفية منفصلة وبشكل واسع كما أن هذا التعميم يمثل استخدام جزئياً للمماثلة يفوق ما تعنيه عادة بالتعميم داخل فئة من مواقف المشكلة ويقرر "مالترمان" أن أى اختراع يعتبر إنتاجاً إبداعياً إذا كان له أثر هام على المجتمع وإذا ترتب على التفكير الأصيل عند فرد معين.

### د- تعريف الإبداع بوصفه مجموعة من السمات الشخصية:-

تظل الشخصية أحد المحاور التى تقود إلى فهم الإبداع فقد تتسم الشخصية بالانغلاق أو الانطواء فترفض التغيير والتجديد بحجة المحافظة على الموروث الثقافى، بل تكافح فى غلق كل النوافذ أمام رياح التغيير. ويستطيع هذا النمط من الناس أن يسوق الجميع وقد يستخدم البرهان المنطقى رفضاً كل جديد، لأنه يهدد مصالحه. وعلى النقيض قد تتسم الشخصية المبدعة بالمرونة والتفانيّة والانفتاح على الآخرين. وهذا النمط المبدع الناقد بوعى، والمفكر بواقعية أكثر ويمكن رصد أهم التعريفات للشخصية وهى :

## تعريف البورت (ALLPRTK, ١٩٣٧):-

ويعرفها بأنها " التنظيم الدينامي داخل الفرد لتلك الأجهزة النفسية والجسمية التي تحدد خصائص سلوكه وفكره."

## تعريف إيزنك (Eysenck, ١٩٦٠):-

يرى إيزنك أن الشخصية هي " ذلك التنظيم الثابت والدائم إلى حد ما لطابع الفرد ومزاجه وعقله وبنيتة الجسمية، والذي يحدد توافقه الفريد لبيئته."

## تعريف كاتل (Cattell, ١٩٦٥):-

يعرف "كاتل" الشخصية بأنها هي "ما يمكننا من التنبؤ بما سيفعله الشخص عندما يوضع في موقف معين."

## تعريف جليفورد (Guiford, ١٩٦٥):-

يعرف "جليفورد" الشخصية بأنها ذلك النموذج الفريد الذي تتكون من سماته وبالرجوع إلى تعريفات الشخصية يمكن أن نميز بين تنظيميين وجوهريين في الشخصية: (أحمد ذكي صالح، ١٩٦٦).

الأول : هو التنظيم الإدراكي الذي يتعلق بالوظائف العقلية كالذكاء والقدرات العقلية والعمليات المعرفية العليا كالتصور والتخيل والاكْتساب.

الثاني : هو التنظيم المزاجي ويشمل أساليب النشاط الانفعالي والتي تتعلق بالوجدان والعاطفة قدم بوس وبولمن (١٩٧٥) تصوراً عن مكونات الشخصية من المنظور المزاجي والتي تتحدد من خلال أربعة عوامل هي :-

### ١- العوامل الانفعالية Emotionality Factors:-

وهي تعبر عن شدة الاستثارة والتقلب المزاجي من حال إلى آخر. وتعبّر أيضاً عن الخوف من التقلبات الخفيفة، ولهذا فإن الفرد من هذا النوع يقاوم التغيير والتجديد، لأن ذلك يدفعه إلى الخوف من كل ما هو جديد.

### ٢- عوامل النشاط Activity Factors:-

تشير أي مستوى النشاط الكلي. فالفرد الذي يمتلك هذه الخاصية يميل إلى العمل الدعوب والانشغال والحيوية، ويكون لديه القدرة على التغيير والتجديد بسبب قدراته التي تتيح له القيام بعملية الموازنة مع المستجدات الطارئة في عمله ونطاق أفكاره.

### ٣- العوامل الاجتماعية Socialability Factors:-

وتتكون أساساً من الميل إلى الصحبة الاجتماعية، ويمتلك الفرد قدراً من الجاذبية الاجتماعية والذكاء الاجتماعي، ولهذا فإن الفرد يمتلك قدراً من المرونة الاجتماعية.

### ٤- العوامل الاندفاعية Impulsivity Factors:-

وتتضمن الميل إلى الاستجابة بسرعة أكثر من الميل إلى كفا الاستجابة. وهذا النوع من الأفراد لديهم الرغبة في تقبل الآراء والأفكار الجديدة، بل يميلون إلى تطويرها وتطويرها من واقعهم. وبالتالي فإن هذه الفئة من الأفراد يمتلكون الرؤية الحقيقية في عملية التغيير والتجديد.

### خصائص الشخص المبدع:-

اهتم الباحثون في مجال الإبداع بالخصائص النفسية للمبدعين وقد توصل علماء النفس إلى مجموعة من الخصائص التي قدمها كل من "أبو حطب" (١٩٨٣):

#### ١- الخصائص العقلية :-

تعد عوامل التفكير التباعدى (divergent Thinking) أحد الخصائص العقلية للفرد المبدع، حيث أبانت الدراسات التي تناولت الإبداع أن الأفراد يتصفون بالقدرة على التمييز بين القيم والمرونة والتحصيل الدراسي والحدس. والشخص المبدع يتميز بدرجة عالية من الذكاء والإنتاج الإدراكي ودرجة عالية من اليقظة والتهيؤ العقلي لاستقبال المثيرات من العالم الخارجي والداخلي، واستقلال التفكير، ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة وسرعة الفهم والأصالة، كما يتميز المبدع إلى الحدس بدرجة أكبر من الحكم. والمبدع يكون خيالياً، وتفكيره واضح ومتعدد الاهتمامات. كما أن المبدع قادر على إدراك الثغرات والأخطاء واستغلالها بل قد يستغل الأمور النافهة من وجهه نظر الأشخاص العاديين في ابتكارات عظيمة.

## ٢- الخصائص الدافعية والمزاجية :-

تعتبر العوامل غير المعرفية هامة للإبداع. ومن أهم الخصائص التي يتميز بها المبدع انه يتسم بحب الاستطلاع والمثابرة والحيوية والحاجة إلى الاستقلال والرغبة في القيادة وفرض الإدارة. والثقة في قدراته وقوة الإرادة والمثابرة والصبر على المعوقات وثبات الجهد والرغبة في التفوق وبذل الجهد والميل إلى الاستقلال ويستطيع التوفيق بين التناقضات الموجودة بداخله وهو قادر على جعل الغريب مألوفاً والبعيد قريباً كما انه يمتلك القدرة على التخيل الإبداعي ويتسم بالثقة في النفس بدرجة كبيرة والمرونة وقبول الذات ويتملك دافعاً قوياً نحو الإنجاز خاصة في المواقف التي تتطلب استقلالاً في الفكر والعمل واستمتاع بالتفكير التأملي ومستوى عال من تحمل الغموض والميل إلى التفرد والاكتفاء الذاتي والانطواء والاندفاع في التفكير.

## الشخصية المبدعة :-

الشخصية المبدعة بالتحديد تهتم باستشراف المستقبل، أنها رؤية في صورة ذهنية مثالية فريدة للمستقبل. إن استشراف المستقبل عبارة عن أن تتخيل ما يمكن أن يحدث من خلال استعمال سيناريو عقلي يمكن أن ينطلق من خلال (البروفة) العقلية (أحياناً يطلق عليه السيناريو التخيلي) التي يعبر عنها الخيال أو المشاعر الوجدانية التي تساعد على خلق توقعات عن المستقبل إن الشخصية المبدعة حالة من التناقض بين المشاعر والانفعالات ولهذا تكون السمات المزاجية في عملية الإبداع أكثر أهمية من دور الذكاء في هذه العملية. فالشخصية المبدعة تحمل في داخلها نماذج من التناقض والتعارض بقدر ما تحمل في داخلها من الاتساق والتناغم، حقاً أن شخصية المبدعين أثارت حيرة الباحثين في تفسير الصورة المعقدة التي تبدوا أحياناً خطوطها متقاطعة ألوانها غير متجانسة (السيد، ١٩٧١).

إذ يبدو المبدعون من الناحية النفسية أكثر اضطراباً من الناس بوجه عام، كما أنهم في نفس الوقت يتصفون بأنهم أكثر صحة من الآخرين، ولديهم القدرة على تحمل الغموض المصحوب بقدر من التوتر، ويتميزون بالانطواء الانفعالي الذي يسمح لهم بإعادة البناء والإبداع، ويتميزون بالحساسية الانفعالية وفي الوقت نفسه يتسمون بخصائص الاتزان الوجداني وقوة الأنا. هذا التناقض في الشخصية المبدعة جعل عالم النفس "كاتل" يطلق على هذه الشخصية أنها نوع من الألباز السيكولوجية.

وفي اعتقادي أن هذا التناقض هو الذي مكن لهذه الشخصية الثراء الفكري النوعي والكمي وسعة الحيلة. أن الشخصية المبدعة تتصف بالثراء والتعقل والعمق اللامتناهي. أنها جزء من إبداعات الطبيعة وخيالات الفكر والفن أنها أسطورة الإنسان الذي أستطاع أن ينتقل بفكرة من عوالم مجهولة الهوية إلى وقائع معلومة المصدر والغاية، فكان من غاياته أن يبدع فأستطاع لإبداع والتخيل والتجديد.

أنها صورة الإنسانية عندما تسمو فوق نزواتها ليشكل الواقع أو يعاد تشكيله وفق مفاهيم الجمال والحق والخير. حقاً أنها أسطورة الإبداع من خلال الشخصية المبدعة.

وتتميز الشخصية المبدعة بالسيطرة على الطبيعة والميل إلى التحرر، كما أنها أكثر ذكاءً وأكثر نضجاً من الناحية الانفعالية، وأكثر ميلاً إلى المخاطرة، والحساسية الانفعالية والاكتفاء الذاتي، وعدم التوحد مع معايير الجماعة، والحضور الاجتماعي، وقبول الذات، وتفضل هذه الشخصية التعامل مع الموقف أو الموضوعات المعقدة، ولديها القدرة على استيعاب الموضوعات غير المنتظمة، وهي تقاوم الضغوط، وتمتلك القدرة على السيطرة الاجتماعية من خلال تأكيد الذات المتمثل في التحكم في المواقف الاجتماعية، والثقة بالنفس عند التعامل مع الآخرين، وثبات القيم. ويتميز الشخص المبدع بأن لديه ميول عالية نحو حرية التعبير وقمع الضغوط الخارجية، وعنده نزعة إلى الاندفاعية في التعبير عن دوافعه. أنه يمتلك الكثير من الحاجات النفسية مثل الحاجة إلى الحرية والتنوع والمخاطرة وتحمل الغموض، ولهذا فهو يتصف بالجدية والميل إلى الإنتاج.

ويمكن رصد أهم صفات الشخصية التقليدية والشخصية المبدعة في الجدول (٢) الآتي : (سميث، ١٩٨٩).

**جدول (٢) خصائص الشخصية التقليدية والمبدعة**

الموضوع	الشخصية التقليدية	الشخصية الإبداعية
حل المشكلات	تميل الشخصية إلى قبول المشكلة كما هي مع تقديم حلول تقليدية للمشكلة	تميل الشخصية المبدعة إلى إعادة تعريف المشكلة بطريقة إبداعية محطمة كل الحدود المتعارف عليها ومولدة حلولاً تتسم بالجدة والتعددية
الحلول	تأتي الشخصية بعدد قليل من الحلول التي يراها ملائمة، وهي حلول ملائمة، وهي حلول تقليدية لا تصطدم مع واقع المجتمع، فهي حلول تسامر المجتمع ولا تتعارض معه	يأتي بأفكار جديدة قد تصطدم مع المجتمع، وهنا يحدث الصراع بين ما يراه هو وبين ما يراه المجتمع ولكنه يمتلك القدرة على تحمل الغموض والضغط وينجح في تقديم الحلول التي تتسم بالثراء والتعددية.
النظام	يفضل التعامل مع الأوضاع في أشكال أنساق منسقة فهو حاذق في عملية التنظيم والترتيب والتبويب.	يفضل أوضاعاً غير منتظمة، ويحب المغامرة من أجل بناء نظام جديد وخلق هياكل غير تقليدية.
التنفيذ	يفضل استمرار العمل على حالته دون إدخال تعديلات، فهو يؤمن بأن التغيير يسبب مشكلات ويؤدي إلى خلق عداوات، وبالتالي فهو يميل إلى تكريس الوضع الراهن.	تجده ناجحاً في وقت الأزمات وخصوصاً عند التجديد إنه يمتلك القدرة على إحداث التجديد، فهو يجد صعوبة في التكيف مع الأوضاع الثابتة، حيث يمتلك روحاً تتصف بالديناميكية والفعالية.
رؤية الآخرين	يراه المبدعون أنه شخص موثوق فيه، ومنضبط، ويمكن التنبؤ بتصرفاته، يحب الانضباط والنظام، غير متساهل في إنجاز الأعمال، غير قادر على تحمل الطموح.	يراه الشخص العادي أنه شخص مغامر ومندفع ويخلق حالة من التنافر والفوضى، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته، وغير منضبط. <sup>(١)</sup>

(١) أ/د فاروق السيد عثمان، سيكولوجية الإبداع، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١٠، ص ١١، ٢٢

## المناخ الإبداعي

### ١- حدود المصطلح:-

يستعمل مصطلح المناخ الإبداعي في الأدبيات المتخصصة بتسميات عديدة مثل: المناخ الاجتماعي الإبداعي , الوضع الإبداعي, الوسط أو العوامل الاجتماعية- الاقتصادية والثقافية للإبداع (متضمنا العوامل التربوية). وهذه المصطلحات ليست متطابقة تطابقا تاما , فهي تختلف في تأثيرها من المجالات البسيطة حتى المجالات الاجتماعية الواسعة , ومن التأثيرات العفوية المباشرة إلى التأثيرات التربوية الموجهة.. الخ.

أما بالنسبة لنا فالمناخ الإبداعي في معناه الواسع يعنى الوسط المباشر والتأثيرات الاجتماعية النفسية , والاقتصادية , والثقافية , والتربوية. وهناك بعض الباحثين يستخدمون مصطلح "الوضع الإبداعي" مثل ماكينون , ويفهم حسب رأيه من هذا المفهوم كل ما يحيط بالفرد من أمور اجتماعية , وتأثير العمل والثقافة حيث يمكن لها أن تسهل أو تحبط التفكير والأفعال الإبداعية. ويفهم ضمنا من مصطلح "ماكينون" أن ما نسميه إبداعا ليس خاصة محددة للشخصية, بل هو شيء متغير , يصعد ويهبط بتأثير الظروف وأوضاع الحياة التي تساعده على النمو والازدهار أو الذبول والموت.

وتستعمل عادة في الأدبيات التربوية المتخصصة جملة الظروف والمؤثرات الاجتماعية المباشرة (كالأسرة والمدرسة , وجماعة العمل... الخ), ولكن علم النفس لا يمكنه أن يجعلها مجردة. فإن أى إبداع أو اكتشاف لا يظهر من أدمغة معزولة عن سياق التمثلات المبدعة لمعارف المعاصرين والأقدمين. وفي تاريخ العلم توجد حالات من الاكتشافات المتزامنة لباحثين عملوا بشكل مستقل , وهذا ما يشكل برهانا على وجود العامل الاجتماعي- التاريخي , أو ما يسميه جوته "روح العصر zeitgeist". وفي معالجتنا لهذا الفصل سننطلق من وجهتين : الأولى مؤثرات المناخ الإبداعي في تكوين القدرات المبدعة لدى الأطفال والشباب , والثانية مؤثرات المناخ في الأداء المبدع لدى الأشخاص الذين يعملون ضمن مجال ما مهني.

### ٢- تأثير المناخ في تكوين وترسيخ الإبداع:-

يمكن أن تظهر في سياق نمو الطفل والشباب جملة من عوامل المحيط التي تنمى ونحرض أو تحبط وتعيق تطور الخصائص الإبداعية للشخصية.

لقد أظهر كثير من الدراسات التي وقفت على تأثير الأسرة أن الأسلوب التربوي المعتدل للأباء اتجاه أبنائهم بما يحتويه من التشجيع على الاستقلالية العقلية , وخلق الظروف المناسبة لتطور الاهتمامات والاستعدادات في مجالات النشاط المختلفة يمكن أن تسهم في تطور الشخصية المبدعة.

و يمكن أن نعدد جملة من الظروف التي تدفع أو تنمى تطور السلوك الإبداعي للشخصية في إطار كل من الأسرة أو المدرسة مثل: عدم الإكراه , وأبعاد العوامل التي تقود إلى الصراع , وتشجيع الاتصال , والمخاطرة , واختيار الصعب في الحدود المقبولة.

وهناك في المدرسة حالات ومواقف خاصة تقود إلى تطوير روح البحث والتفكير الإنتاجي المنطلق , والمواقف المبدعة... وهذه المواقف يمكن أن تكون تشجيع التلاميذ على طرح الأسئلة , وتحريضهم على النشاط الفعال في إيجاد الأفكار الحسنة , وحثهم على المناقشة , والنقد البناء.

وتوجد في التعليم الجامعي والعالي أيضا مجموعة من العوامل التي تيسر أو تعيق الإبداع. فضمن بحث تطبيقه على مجموعة من العلماء المعروفين تبين من خلال السؤال المطروح عليهم في الاستبانة حول العوامل الميسرة والمعيقة للقدرات الإبداعية أثناء الدراسة أن الإجابة كانت متفقة على أن العوامل الميسرة هي بالدرجة الأولى تشجيع الطلاب على الاستقلالية, وإن الأستاذ كان يعطى شكلا أو مشكلة ما , موحيا بأنه ينتظر نتائج جديدة من الطلاب , إضافة إلى ذلك حماسه , وقبوله للطلاب على أنه مساو له. ومن العوامل المعيقة المرتبطة بخصائص الأستاذ فقد ذكر أفراد العينة عدم تشجيعه لأفكار الطلاب ومبالغته في النقد , ونقص ثقافته , وعدم تحمسه , وفوضويته وصلابته , واهتماماته الضيقة التي تتوقف على الاختصاص الدقيق فحسب.

ومن العوامل المساعدة على تفتح القدرات الإبداعية , أيضا , جملة النشاطات المدرسية والجامعية مثل حلقات البحث التي يسود فيها جو الاعتناق من القيود , حيث يندفع الطالب إليها بدافع داخلي فعال , الأمر الذي يتطلبه تكوين الشخصية المبدعة.

ومن المجالات الواسعة لتطوير وتأكيد الاستعدادات والمواهب والقدرات في كافة الأعمار , وفي كافة المهن هي المهرجانات الوطنية والمعارض الجماعية. ففيها يتم عرض النتاجات العلمية- التقنية , والفنية- الأدبية التي تسهم في تطوير الشخصية بكل أبعادها وتكشف عن المواهب الحقيقية من أجل تحقيق الفوائد الاقتصادية. وفي معرض حديثه حول المناخ لتربية الإبداع يتذكر تورانس ما قاله أفلاطون: " من يكن مكرما في بلد ما فسيكون إنتاجه لهذا البلد " , ويضيف: إذا ما كان على الأطفال أن يحرضوا على التعليم وأن يفكروا إبداعيا فينبغي أن نكرم ما يمكن أن يحققه هذا التفكير.

### ٣- تأثير المناخ على الفعالية الإبداعية:-

#### أ- في الوحدات الإنتاجية:

يوجد عادة في المؤسسات الصناعية الإنتاجية نمطان من العمل : الأول ذو طابع تكرارى , والثانى ذو طابع إبداعي. فالمؤسسات تنتج من جهة سلعا متماثلة ومكررة لوقت معين , ثم تبتكر نوعيات جديدة من السلع أو تسد الحاجات أو المستلزمات الجديدة من جهة أخرى. ويوجد بين هذين النمطين توازن ديناميكي يقود إلى التقدم المستمر للإنتاج ليس فقط من وجهة نظر التشابه والمقاربة , بل من وجهة نظر الاختلاف والتباعد. ويمكن لهذا الإنتاج - إذا لم يتدخل العامل الإبداعي في أى مستوى من مستوياته - أن يتوقف عن أن يكون مستهلكا لكونه لم يعد قادرا على سد الحاجات الجديدة المتزايدة.

وفي إطار مؤسسة ما إنتاجية لا يتوقف الإبداع عند تطوير الإنتاج وإيجاد المواد الجديدة فحسب , بل ينبغى أن تدرج العلاقات الاجتماعية , والصدق في العمل , والجو العام أيضا.

#### ب- على مستوى جماعات البحث (الجماعة العلمية):

إن للجو العام في مجموعات البحث أهمية خاصة بالتأثير في العمل العلمي , حيث إن المناخ الملائم يسمح بتواصل المعلومات وتبادلها بين أفراد الجماعة. ويكون هذا المناخ تربة خصبة لإيجاد الأفكار الجديدة أو الكشف عن ظواهر جديدة من خلال عمليات الضبط والمراقبة المتبادلة وإجراء التصحيحات بثقة وتعاون لكل ما يعرض من أفكار ونشاطات. ولا يتوقف تأثير المناخ المناسب عند إيجاد الأفكار الجديدة فحسب , بل يؤثر في تكوين الشباب الباحثين والقادمين الجدد من خلال اكتسابهم لأصول البحث العلمي وتبادل المعلومات , ويمكن من جهة ما أن تظهر بعض الصراعات بين الباحثين أنفسهم أو بينهم وبين المدير بما يتعلق بنظام التقويم أو الترفع والترقية... الخ.

#### ٤- تأثير الظروف الاجتماعية - التاريخية:-

إضافة إلى المناخ الجماعي , الذى يؤثر في فعالية الأفراد الذين ينضون تحت نطاقه , يوجد أيضا المناخ العام الذى يتضمن الحاجة الاجتماعية للنشاط الإبداعي في المجالات المختلفة. لقد كتب ماركس في مقدمة "مساهمات في نقد الاقتصاد السياسى " أن الإنسانية تضع المهمات التى يمكن حلها , وعند الفحص الدقيق والعميق يستنتج أن هذه المهمات نفسها تولد فقط عندما تكون الظروف العادية لحلها موجودة مسبقا , أو على الأقل في طور التكوين .

ويتضمن المناخ العام أيضا الأشكال التى تدفع وتثير أفراد المجتمع. الأعياد والمهرجانات الوطنية التى تشكل مجالا لتحريض الإبداع , أيضا بأن مثل هذه الأشكال تؤثر في تنبيه الإبداع وتحريضه على المجالات الفنية والعلمية والتقنية.

إن الشخصية المبدعة فى أى مجال من مجالات النشاط لا توجد خارج الإطار الاجتماعى حيث تعيش وتبدع. لقد كتب بياجيه يقول: " إن المجتمع وحدة عالية , أما الفرد فإنه لا يصل إلى ابتكاراته وأعماله العقلية إلا بمقدار ما يحتل مكانا فى تفاعل الجماعات , وبالتالي فى إطار المجتمع ككل. إن كبار الناس الذين خطوا اتجاهات جديدة لم تكن لإنتاج تفاعل وتركيب لأفكار أعدت فى إطار تعاونى مستمر " . ومثل هذه الأفكار أشار إليها النيوروجى- الفيزيولوجى جيرارد (R. W. Gerard) بقوله : " إن تصوراتنا المبدعة بكاملها ليست نتاجا لدماع إنسان معزول, بل لدماع كان مرتبطا بالتفاعل مع الناس الآخرين وبتاريخ الحضارة بكاملها " .

إن الاكتشافات العظيمة لم تظهر هكذا كيفما اتفق من دون علاقة مع اكتشافات أخرى مشابهة , ومع الجو العلمى السائد حولها. يقول بورينج (Boring) : " لا توجد ولادة تلقائية للأفكار " . ويتضمن تاريخ العلوم حالات عديدة من الاكتشافات المتزامنة لباحثين عملوا مستقلين , وهو برهان على الدور الذى يلعبه العامل التاريخى- الاجتماعى , أو كما يسميه جوته "روح العصر zeitgeist " , وهناك أمثلة لمثل هذه الحالات: لقد اكتشف "نيوتن " و "لابينتز" الحساب التفاضلى مستقلا الواحد عن الآخر. وقد اكتشف كل من "أدامز , ولو فريير " الكوكب نيبتون , وقد صاغ كل من "كانت " و "لابلاس" بصورة مستقلة النظرية التى تدور حول تطور النظام الشمسى فى السديم الأولى , وأما قانون "بل-ماجينديه " فهو نسبة لصياغتهما , وقد عمل الواحد مستقلا عن الآخر. وقد كتب داروين "أصل الأنواع " ونشره بصورة سريعة فى الوقت الذى كان فيه " والاس " يحضر لنظرية مماثلة فى ذلك , وأما نظرية جيمس-لانج فى الانفعالات فقد تمت أيضا بعمل مستقل الواحد عن الآخر ثم حملت اسميهما... الخ. وغالبا ما يكون هذا التزامن ليس لدى اثنين فقط وإنما يمكن أن يحدث لعدد أكبر من ذلك.

وبناء على ما تقدم توجد ظروف اجتماعية تاريخية- ذات أساس ثقافى- علمى- وراء الاكتشافات والابتكارات فى العلم والتقنية والفن... إن ظاهرة التزامن فى إيجاد الأفكار المتقدمة كما يقول ياروشفسكى ناتجة من قانونية اجتماعية- تاريخية تتضمن جملة من العوامل المستقلة عن الخصائص الفردية للإبداع. إن الفرد الباحث يظهر كخاضع , لكنه يظهر أيضا كتعبير عن روح العصر , وإن هذا لا يعنى أن دراسة المظاهر السيكولوجية الفردية للنشاطات النفسية تفقد من أهميته (أى روح العصر) لأن كل باحث أو عالم له شروط اكتشافه أو ابتكاره الذاتى الذى لا يتكرر .

ويشير جوردون (G. Gordon) إلى ما يلي: " إن تراكم المعلومات ووجود المواد العلمية المستخدمة في أي علم متقدم هما نتائج المساهمات الجماعية بين الأشخاص , أكثر مما هما شخصية , (أي نتاج شخص واحد). إن العلم نتاج اجتماعي , وحتى أولئك الفرديون من بين النظريين فإنهم مرتبطون بباحثين آخرين يقدمون لهم المعطيات اللازمة من أجل إعداد نظرية ما." ولا ينفى جوردون الطابع الفردي الذي يتداخل مع الطابع الاجتماعي في عملية الإبداع , حيث إن اندماج المعطيات التي تقود إلى نتاج جديد هي في التحصيل الأخير عملية فردية , لكن هذه العملية تأخذ مكانها في الوسط الاجتماعي وتتأثر به. ويحاول جوردون أن يميز بين الاستعداد الشخصي الذي يدعو للإبداع وبين المساهمة الاجتماعية الفردية التي يدعوها الاكتشاف. أما الإبداع فيمكن أن يكون الكمون أو الطاقة ( input ) النفسية , بينما الاكتشاف هو النتاج الاجتماعي النهائي أو المرود الأخير ( output ). ونجد أن فكرة الظروف الاجتماعية- التاريخية موجودة فيها.<sup>(1)</sup>

(1) د. مصطفى ناصف , ترجمة: د. غسان عبدالحى أبو فخر, الإبداع العام والخاص , سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب- الكويت , صدرت السلسلة في يناير ١٩٧٨ بإشراف أحمد مشارى العوانى ١٩٢٣- ١٩٩٠ , ص ٧١,٨٢